

على الدالى
كتاب الجمهورية
٣٦
عباقرة
الحضارة
الاسلامية

كتاب الجمهورية

اول فبراير سنة ١٩٧٢ العدد ٣٦

عباقرة الحضارة الإسلاميّة

على الدالى

تقـــديم

كيف كان الانسان العربى يفكر فى ظل الحضارة الاسلامية ؟!

يوم كانت هناك حضارة للاسلام .. مراكزها المشعة فى بغـداد ودمشق والقاهرة وطليطلة ، وفى المغرب العربى الذى قدم الحضارة الاسـلامية الى أوربا عبر الاندلس .

ان الحضارة الاسلامية كانت معجزة المعجزات على الاطـــلاق فى تاريخ الحضارات كما قال مستشرقون أوربيون .. فلماذا ؟

يقول هؤلاء : لان الحضارة الاسلامية قامت خلال مائة عام فقط .. أو أكثر قليلا .. بينما ظلت أوربا تناضل طوال الف عام حتى قامت حضارتها .. وهى حضارة القرن العشرين .. ثم - وهذا هو العجب العجاب - لم يكتب لاوربا أن تقيم حضارتها فى بداية القرون الوسطى ، الا بعد انتقال الحضارة الاسلامية اليها .. من الاندلس .. ثم من البلاد الاسلامية فى شمال أفـريقيا .. من ليبيا .. والجزائر .. عبر البحر الى ايطاليا ، والى سالرنو فى صقلية قبل ذلك ..

وخالدة هى سالرنو كما كانوا يقولون فى أوربا .. خالدة لان فيها كان العلم العربى .. والفكر أيضا . وعندما زحفت العلوم الحضـــارية من بلاد المسلمين الى سالرنو فى جنوب ايطاليا ، صرخ الجهلة ودعاة الظلام الاوربيون : ياللهول .. حذار من الكفرة الليبيين والجــــزائريين .. انهم يجيئون الى سالرنو .. يا أهل أوربا .. انهم من السحرة .. جاءوا من مصر ومن ليبيـا والجزائر ليخدعوكم بدعوى العلم .. وهم كفرة !!

لكن صيحات الجهل تلاشت امام عبقرية الاطباء والمهندسين وعلماء الفلك والرياضيات من الليبيين والجزائريين والمصريين من تجار الاسكندرية .. وكانوا حملة الحضارة الى الشاطىء الايطالى كانت الحضارة الاسلامية رسول سلام واخاء ومساواة للبشرية .. ولم تكن رسول استعمار وهمجية وبربرية مثل حضارة اوربا فى القرن العشرين .. تلك التى مزقت شرف الانسان .

وهذا هو الفرق .. بيننا وبينهم ..

من اجل هذا ينادى المخلصون من أبناء الامة العربية بطرح قضية التراث امام الامة .. لتهتدى به فى بعثها الحضارى الجديد .. حتى لا يضيع منا الطريق وتقع الفتن .. نتيجة لخضوع العقل العربى للتضليل الاوربى .. والزيف الاوربى .!

ان حضارة اوربا الحديثة تحمل عوامل انهيارها وفنائها ..

وهاهم فى أوربا اليوم يرفضون حضارة اقاموها هم بايديهم .. لانها حضارة لا تهتدى بعقيدة بشرية مؤمنة ، تعطى للانسان حقوقه قبل حقوق لطبقة او فئة !! ونعود الى السؤال الذى طرحناه فى بداية هذا التقديم .

كيف كان الانسان العربى يفكر فى ظل الحضارة الاسلامية .. التى لولا تسلط الكهانة واعداء الدين على الامة لما زالت وتلاشت بعد ستة قرون ..!

وهو سؤال الساعة ..

والاجابة على هذا السؤال تجىء مباشرة من أفواه العباقرة العظام .. الذين اقاموا بعبقريتهم الاسلامية صرح الحضارة الاسلامية المهيب .

يجيب على هذا السؤال احد بناة الحضارة الانسانية ، وهو أستاذ كل العصور كما وصفه الاوربيون انفسهم .. وهو الشيخ الرئيس ابن سينا .

واخترت ابن سينا ، لان كتبه كانت تدرس فى كليات الطب ، فى فرنسا واوربا عامة ، حتى القرن الثامن عشر ..!! ويقول الشيخ الرئيس ابن سينا ، وهو يكشف عن سر الحضارة الاسلامية ، وهو يجيب على سؤال الساعة وانا هنا انقل الرد على السؤال ، من كتاب « منطق المشرقين » او القصيدة المزدوجة فى المنطق لابن سينا ، وهذا الكتاب نشر فى القاهرة عام ١٩١٠ ..

يقول ولنستمع فى اكبار وفى انتباه أيضا لهذا الكلام الذى يرد به ابن سينا على سؤال الساعة .

« اكملت العشر من العمر ، وقد اتيت على القرآن الكريم ، ثم بدات اشتغل بالفقه ، وعندما يقبل الليل اجلس الى مصباحى اقرأ وادون ، وكثيرا ما كنت اهرع الى المسجد ضارعا الى الله أن ينير بصيرتى » .

ما معنى هذا الكلام ؟؟

الحضارة الاسلامية قامت بما يشبه المعجزة ، لان عباقرة هذه الحضارة لم ينعزلوا عن القرآن الكريم .. بدأوا به ، ومن نوره تفجرت عبقرية ابن سينا .. وفى المسجد كان الرجال العظام بناة الحضارة يصنعون المعجزة ..!

ان ابن سينا يعترف بذلك .. ينسب الى المسجد الالهام العلمى الذى جعل من ابن سينا استاذ كل العصور فى الطب وفى غير الطب من علوم

الحكمة .. فعلماء الحضارة الاسلامية كانوا علماء فى الطب والهندسة والفلك ..

يقول ابن سينا فى القصيدة المزدوجة انه كان فى السادسة عشرة من عمره عندما بدأ يمارس الطب ويعالج المرضى ، وخلال ممارسته لمهنة الطب كان يناظر فى الفقه الاسلامى !!

كان الدين هو مرشد علماء الحضارة الاسلامية .. وكان الفكر الاسلامى لا ينعزل عن العلم .. لان الاسلام تشدد فى ذلك ونادى بذلك .. ومداد اقلام العلماء يوزن بدم الشهداء كما قال رسول الاسلام عليه السلام ..

وطلب العلم عبادة ..

تقول المستشرقة الالمانية الدكتورة « هونكة » فى كتابها عن الحضارة العربية وهى تفسر لغز هذه الحضارة :

« الاسلام لا يعرف وسيطا بين العبد والرب ، ليس فى الاسلام كهنة وكهنوت ، فمجال حرية الرأى كان أوسع ، وحينما كانت الكهانة تطغى فى اوربا ، كان ذلك يؤدى الى اهمال العلوم وكسادها ، ولعل افناء الطبقة العلمية العليا من المسلمين على يد الاسبان والمغول هو خير برهان ودليل »

وترى الدكتورة هونكه أن تسامح المسلمين كان السبب فى تعرضهم للمذابح فى اسبانيا .

نعم .. كانت أوربا ضد العلم .. ومع الكهنوت .. لذلك قامت المذابح فى اسبانيا للقضاء على علماء الحضارة الاسلامية .. وتمضى الدكتورة «هونكة» تفسر لغز الحضارة الاسلامية فتقول :

كان رسول الاسلام قد أوصى المسلمين وكل مؤمن رجلا كان ام امرأة بطلب العلم ، والرسول محمد (عليه الصلاة والسلام) قد جعل من طلب العلم واجبا دينيا ، فهو الذى يقول للمؤمنين « اطلبوا العلم من المهد الى اللحد » ، ويرشد اتباعه دائما الى طلب العلم ، فيقول لهم : « ان ثواب العلم ، كثواب الصيام ، وتعليم العلم ، ثوابه مثل ثواب الصلاة » .

وكثيرون غير الدكتورة « هونكة » من المستشرقين الاوربيين قالوا نفس الكلام عن الحضارة الاسلامية .. وارتباط البحث الحضارى فى بلاد العرب بالدين .. ذلك لان الدين الاسلامى هو دين العلم .. اى دين العقل كما قال المستشرقون الاوربيون الذين اخذوا فكرتهم عن الاسلام من مصادره الاصلية وليس من كتب المؤرخين الاوربيين بعد الحروب الصليبية .. لان هؤلاء كانوا قد امتلأوا بالحقد على الاسلام وعلى المسلمين بعد هزيمة اوربا الساحقة فى بلاد العرب .. ودخول صلاح الدين بيت المقدس فى ليلة الاسراء ..

ومن العجيب ان أوربا خرجت من هذه الحرب بفكرة الحضارة ..

يقول المؤرخ الاوربى « هندريك فان لون » فى كتابه « قصة الجنس البشرى » عن ذلك وهو يتحدث عن الحروب الصليبية .

« ان الامبراطور اليكس ، استنجد بالصليبيين لحماية القسطنطينية من خطر المسلمين ، وعندما بدأ القتال ، كان الصليبيون يشعرون بالكراهية نحو الروم (!!!) فى دولة بيزنطة ، فقد كان الروم يخدعون شعوب أوربا ، ويضللونهم ، بل كانوا ينحرفون عن تعاليم المسيح ، بعكس المسلمين ، الذين كانوا يحترمون المسيح ودعوته ، ويتميزون بالسماحة نحو الاديان ، وقد لاحظ الصليبيون أن المسلمين لهم خصال تثير الاعجاب ، فهم أمناء شرفاء ،واصحاب مروءة ونجدة .

والحق ان الحروب الصليبية ، التى بدأت بحملة تأديب للسلاجقة ، أصبحت منهجا ثقافيا عاما ، يعلم الملايين من شباب اوربا معنى الحضارة » ..

هذا ما قاله مؤرخ أوربى .. أرخ للجنس البشرى بروح الانصاف والعلم .. ولم يعرف قلمه الحقد مثل غيره ممن زيفوا التاريخ !!

ولنقف هنا وقفة .. لنطرح سؤالا جديدا .. وهاما :

لماذا ينادى قائد الامة المؤمن الرئيس أنور السادات برفع شعار العلم والايمان . ؟

الرد على هذا السؤال قد جاء فى بداية التقديم لهذا الكتاب .

لان الحضارة الاسلامية هى حضارة الايمان والعلم معا ، وبهما قامت فى اسرع وقت وأقل زمن ، حتى ان المؤرخين والمستشرقين قد ذهلوا وهم يحاولون تفسير قيام الحضارة الاسلامية خلال مائة عام .. بينما استغرق قيام الحضارة فى أوربا ألف عام !!

والحضارة فى أوربا قامت بالعلم وحده .. وليس بالايمان !!

وعندما انعزلت الامة العربية عن الايمان .. انهارت الحضارة الاسلامية .. ويقول الدكتور محمد حسين هيكل فى كتابه « الشرق الجديد » مفسرا انهيار الشرق الاسلامى وخضوعه للجهل والجمود بعد ذلك فيقول :

« لان نظام الحكم ، ولان الحياة الاجتماعية فى البلاد الاسلامية كانت قد وصلت من الجمود حدا مؤسفا .. »

ويرى الدكتور هيكل أن اوربا بعد ذلك رأت فرصتها فى عزل البلاد الاسلامية عن ماضيها ، كما رأت اوربا التى جاءت واستعمرت بلادنا ، أن الفرصة متاحة للقضاء على تراث الامة الاسلامية ، وذلك بتغريب الشرق الاسلامى اى بزرع القيم والافكار الاوربية فى رؤوس المسلمين والعرب .. حتى يمكن السيطرة عليهم .. يقول الدكتور هيكل عن ارتباط ماضى المسلمين بحاضرهم وحتمية ذلك :

« انى أومن بالوراثة ، ايمانا صادقا قويا ، أومن بها فى الجماعات كما أومن بها فى الافراد ، ولعلها فى الجماعات أدق وأبقى ، والعقل لا يستسيغ أمكان الانفصال بين زمن وزمن ، فى بقعة واحدة من الارض ، انفصالا يمحو كل صلة بين الزمنين . ولا يقبل عقلى الا يتأثر الحاضر بالماضى ، ولو أصبح هذا الحاضر ، فى يد قوة طارئة لها من السلطان كل ما يمكن أن يكون لها ، وها نحن أولاء تغزونا الحضارة الاوربية ، منذ أواخر القرن الثامن عشر الى اليوم ، غزوا ذريعا ، فهل محت هذه الحضارة مقوماتنا ؟ أو هل محت مقومات أية أمة شريفة أخرى ؟

وهب أن الحضارة الاوربية وصلت الى تغريب الشرق ، على حد تعبير بعض علماء الغرب ، فهل تنقطع صلة حاضر الشرق بماضيه ؟! ان قليلا من التفكير يدلنا ، على أن ذلك لن يكون » .

لكن ما هو تفسير الدكتور هيكل للصلة بين الشرق والغرب ، الشرق المحتل والغرب المستعمر .

والشرق فى قديم الزمان وكيف كانت الصلة بينه وبين الغرب فى قديم الزمان أيضا .. ان هناك لقاء كما يقول الدكتور هيكل .. وليس كما قال الشاعر الانجليزى « كبلنج » : « الشرق شرق .. والغرب غرب ولن يلتقيا » .

كلا .. أن الشرق التقى بالغرب .. وسيلتقى دائما بالغرب لكن كيف .. وما هو شكل هذا اللقاء :

يقول الدكتور هيكل :

« الشرق شرق والغرب غرب ، ولن يلتقيا ، هذه الكلمة للشاعر الانجليزى كبلنج ، تجرى على كل لسان ، كلما تناول الحديث الصلة بين الشرق والغرب .. اننى أبتسم حين أقرأ كلمة كبلنج ، فالشرق شرق ... والغرب غرب .. هذا صحيح . لكن الشرق والغرب التقيا منذ أبعد حقب التاريخ ، وهما يلتقيان دائما ، وسيلتقيان ما بقى فى العالم شرق وغرب .. ذلك أن النضال مستمر بين الشرق والغرب » .

اذن هو لقاء نضال .. كما يقول الدكتور هيكل .. لكن أى نضال ؟!

يقول المؤلف :

« وما عسى ان يكون اللقاء اذا لم يكن فى نضال ؟! وهل الحياة فى رأى العلماء ، من معاصرى كبلنج غير النضال ، كذلك يقول شوبنهور عند حديثه عن فلسفة الحب ، فالحب ليس هذا المعنى الخيالى الجميل ، الذى تتغنى به الشعراء والادباء ، وانما هو الجهاد العنيف لتحسين النوع وتخليده ، فمن عجب أن يحاول الكتاب والمفكرون خلق صلة بين الشرق والغرب ، وهذه الصلة موجودة منذ القدم ..

ان لقاء الشرق بالغرب هو الذى أثار فى العالم حضارات العالم ، هـو الذى رفع فوق مجازر الحروب وأهوال التعصب ، قبسا بعد قبس من ضياء النور والهدى والعلم ، وفى هدى هذا الضياء يسير العالم نحو الكمال » .

انه لقاء حضارى اذن .. لمصلحة الحضارة .. سواء كان اللقاء فى حرب أم فى سلام .. والتاريخ يؤكد ذلك كما يقول المؤلف .

ها هو التاريخ يتحدث عن هـذا اللقاء .. لقاء النظامين والصراع بين الشرق والغرب .. لكى تقوم الحضارات فى النهاية .

فالشرق الاسلامى المتحضر ، التقى بالغرب المظلم المتاخر فى الحـروب الصليبية .. وانتقلت بعد تلك الحرب الدامية الطويلة ، الحضارة الاسلامية الى أوربا ..

وقبل الحروب الصليبية بقرون وآلاف السنين .. كان هناك اللقاء ..

« الغزو كان متصلا بين مصر الفرعونية واليونان ، ها هو الاسكندر الاكبر يستولى على مصر ، قبل الميلاد بثلاثمائة عام ، ومصر قامت بغزو اليونان بعد ذلك فى عهد البطالمة ثم عادت اليونان تغزو مصر ، ثم انتهت دولة البطالمة ، وهذا المد والجزر ، بين مصر واليونان وروما ، قد حدث مثله بين فينيقيا ومصر ، وفى تلك العصور كانت الوثنية منشورة اللواء ، وكانت عبادة الاصنام ولم يغير ظهور موسى عليه السلام وبنى اسرائيل ، من هذا الوضع فقد خضع اليهود لحكم روما خضوع الاذعان وسكينة ، فلما ظهرت المسيحية الى جـوار قدس سليمان ، كان طبيعيا ان يدس اليهود لها عند حكام روما .. وحاولوا اظهارها بمظهر الثورة على سلطان روما ، وفى أواخر القرن السادس المسيحى ظهرت الدعوة الاسلامية ..

وهنا بدأ الصراع واللقاء بين الشرق والغرب لكى تقوم الحضاره والمدنية

ويقول الدكتور هيكل واصفا احوال العالم حينذاك ، وكيف كان المناخ الذى احاط بالدعوة الاسلامية وبجهاد رسول الاسلام صـلى الله عليه وسلم .

« لقد احاطت بمحمد عليه السلام ، بيئة معادية أشد العداء ، احاط به العرب الوثنيون ، الذين كانوا أشد الناس له عداوة ، واليهود المنتشرون فى انحاء شبه الجزيرة وفى جنوب الشام ، والمجوس فى فارس ، وفى جنوب اليمن أعداء أيضا ، لكن فى أقل من مائة عام ، بعد وفاة رسول الاســلام عليه السلام امتد سلطان الاسلام الى الشام ومصر والى شمال أفريقيا ، حتى المحيط الاطلنطى ، ثم انتقل من مراكش الى اسبانيا ، ثم امتد الى قلب آسيا حتى أواسطها ، ثم امتد الى الهند الشرقية ، تغلغل فى أفريقيا وآسـيا وأوربا .. وبذلك قامت فى العالم دولة الاسلام مترامية الإطـراف ، فنقلت عاصمتها من مكة الى دمشق الى بغداد الى القاهرة ، واقامت فى العـالم حضارة جديدة ، انكمشت أمامها الحضارة الرومانية والحضارة اليونانية ،

ووقفت امامها اوربا خائفة ترقب ، وعن خوف اوربا وعن ترقبها نشات الحروب الصليبية وظلت تلك الحروب قائمة ، لكن اوربا لم تصل الى شيء مما تبغي ، حتى ظنت بعد الحرب العالمية الاولى ، انها بلغت غايتها بوضع انجلترا وحلفائها ، أيديهم على بيت المقدس وهتاف الفيلد مارشال « اللنبى » ، قائد قوات الحلفاء قائلا : اليوم انتهت الحروب الصليبية !!

فماذا حدث بعد صيحة المارشال اللنبى فى بيت المقدس ؟!

ان حقد أوربا على الشرق الاسلامى ، وكراهية اوربا للشرق الاسلامى وتعصب أوربا ضد الشرق الاسلامى ، طوال القرون التى اعقبت ظهور الاسلام كان مصدره كله عاملين كما يقول الدكتور هيكل :

« ان الاسلام قد انتشر فى اول امره ، فى بلاد كانت تخضع لروما ، ثم القسطنطينية بعد ذلك ، وكانت اوربا تطمع فى السيطرة على تلك البلاد ، وكانت الشام ومصر اهم هذه البلاد ، التى افلتت من سيطرة اوربا بعد ظهور الاسلام ، اما العامل الثانى الذى حرك احقاد اوربا ضد الشرق الاسلامى ، فهو ان الاسلام استقر فى البلاد التى فتحها ونشر علمه وحضارته فيها ، وبذلك اقام سدا يفصل بين اوربا وبقية العالم .. وذهبت جهود اوربا هباء .. وتحطمت على صخرة الاسلام المطمئن الى عزه وقوته ، فلماذا ؟ »

يقول الدكتور هيكل :

« ويرجع ذلك فى رأيى الى اجتهاد الاسلام ، كان الاسلام يحطم القيود ؟ ويرفع عن الانسان اية عبوديه لغير الله .

اياه نعبد واياه نستعين ..

لم يجعل الاسلام لاحد من الناس على احد سلطانا ، ولم يجعل لعربى اى فضل على عجمى الا بالتقوى ، وقد رأى الناس فى الاسلام ، الحرية للعقل والعاطفة والشعور ، الحرية التى تعترف للعقل والقلب والمنطق وللالهام .. !

تعترف لها بحقها جميعا فى تنظيم حياة الفرد وحياة الجماعة بما يكفل للفرد السيادة ، وللجماعة الطمانينة ، فى حدود تقوى الله ، ورضاه على ما نزل به القرآن .. لا على ما تريده اهواء ذوى الحكم والسلطان ، لذلك نهل المسلمون من هذه الحرية ، فغزوا بعقولهم وقلوبهم ، علوم اليونان وفلسفتها وحكمتها ، وحكمة فارس وخيالها وشعرها ، ولم يكن لاحد ، ولا لصاحب السلطان ، ان يصد المسلمين عن ذلك ، ان لم يشجع عليه ، وكيف يصد الحاكم عنه وهو وكيل المسلمين ، فى حدود ما امر الله به ، وما نهى عنه فى القرآن الكريم . ان نظام الحكم الاسلامي لم يكن نظاما اوتوقراطيا ؟ للحاكم فيه الكلمة العليا ، عبر عنه ابو بكر ، حين ولى الخلافة ، فخطب فى الناس فقال : ايها الناس .. لقد وليت امركم ، ولست بخيركم ، فان

احسنت فاعينونى ، وان اسأت فقـوموني ، اطيعونى ما اطعت الله ورسـوله فيكم ، فاذا عصيت الله ورسوله ، فلا طاعة لى عليكم » ..!

ويمضى الدكتور هيكل فيقول :

« وبالرغم من أن هذا النظام الاسلامى ، الذى رسم للحاكم حـدوده الضيقة لم يلبث طويلا فى هذه الحدود ، ومن أن الخلافة انقلبت ملكا عضوضا منذ خلافة معاوية بن أبى سفيان ، الا أن الحرية التى أباحها الاسـلام للمسلمين ، بقيت مكفولة لهم عصورا طويلة ، يتمتع بها العرب وأهل الشام والفرس وأهل مصر وكل من استظل بسلطان الدين ، مسلما كان أو من أهل الكتاب ، وبهذه الحرية ، قام المسلمون بدراسة حضارة اليونان ، ودرسوا حكمة فارس وخيالها ، وكل الفلسفات والحضارات ..

ظلت هذه الحرية مكفولة للمسلمين ، الى أن جاء العباسيون فزادوا فى سلطان الحكم المطلق خطوة جديدة ، بعد خطوة الامويين ، خطوة نقلت الحكم من الشورى الاسلامية الصحيحة ، الى الاطلاق الفارسى ، اطلاقا مهد للانحلال، الذى أصاب سلطة الاسلام فى بغداد ، فنقل الحضارة الاسـلامية ، التى ازدهرت فى أسيا طوال عصر الامويين والعباسيين ، لتزدهر فى افريقيا على ضفاف النيل .. وتتخذ القاهرة مقرا لها » .

ثم يستطرد الدكتور هيكل شارحا دور القاهرة فى حماية التـراث فيقول :

« ولئن كانت القاهرة ، قد تأثرت الى حد غير قليل ، بما اصاب دمشق وما اصاب بغداد ، فانها احتفظت بالتراث الاسلامى الذى انتقل اليها ، كخير ما يكون الاحتفاظ به ، لان حظا غير قليل من الحرية ، كان لا يزال مسموحا به ، للعلماء والمفكرين والشعراء وذوى الرأى والمكانة من المسلمين المصريين ، ومن المسلمين من البلاد الاسلامية الذين نزحوا الى القاهرة حين استقر ملك الاسلام فيها » ..

انتهى كلام المرحوم الدكتور محمد حسين هيكل .. صاحب احـد اعظم كتب عربية صدرت عن نبى الاسلام ..

وبعـد ...

أن هذا الكتاب الذى يصدر فى القاهرة عن التراث وقصة الحضـارة الاسلامية يتضمن فصولا قليلة عن العلماء العباقرة من المسلمين الذين اقامـوا الحضارة الاسلامية .. علماء الطب والصيدلة والهندسة والفلك والرياضيات .. ويتضمن فصلا عن قصة انتقال الحضارة الاسلامية الى أوربا .. وكيف كان ذلك .. غير انى رأيت امانة وايمانا ، أن اخصص فيه فصلا عن الامام على بن ابى طالب .. لانه باب مدينة العلم كما قال عنه رسول الاسلام عليه السلام .. ولانه كان صاحب أبلغ المأثورات فى التاريخ الاسلامى عن العلم والعلماء .. ولانه ظل هو وذريته الهاما مستمرا للعلماء العظام من بناة الحضارة الاسلامية ،

وعلى راس هؤلاء ابن سينا الذى كان يطلق على الامام على بن ابى طالب لقب « معدن الحكمة » وابن سينا كان فى مذهبه الباطنى يتبع كل المتصوفة من أهل الباطن .. الذين يؤمنون بالالهام المستمر والمدد المتدفق من اقوال الامام على واحفاده وأولاده من الطاهرين الائمة .. بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم . وها هو جابر بن حيان .. الذى قدم للبشرية جمعاء علم الكيمياء .. ينسب كل عبقريته فى علم الكيمياء للامام جعفر الصادق ..

وهو احد احفاد الامام على ابن ابى طالب ..

وهو الامام السادس بين أئمة الباطن الذين كان يدين لهم المسلمون بالطاعة والولاء .. عن يقين وعن حب .. ورأيت أن اضمن الكتاب فصلا عن نظرية الامام على بن أبى طالب فى الحكم وفى حقوق الحكام وحقوق الرعية .. لان الامام على ، هو ولى كل مؤمن بعد الرسول عليه السلام ، ولان الامام على يمثل فى التراث الاسلامى الفيصل بين الحق والباطل ..

والحضارة الاسلامية فى سيرتها مرتبطة بمبادىء القرآن .. وعلى بن أبى طالب كما قال عنه رسول الله عليه السلام .

« على مع القرآن .. والقرآن مع على .. ولن يفترقا حتى يردا على الحوض » ..

وأذا كان عبقرى الحضارة الاسلامية جابر بن حيان قد عبر عن ارتباط علم الكيمياء بالدين ، فى نظرية جريئة لم يسبقه اليها احد .. فان من الامانة التاريخية أن يربط كل من يريد التصدى لقصة الحضارة الاسلامية بين ظهورها وبين باب مدينة العلم الامام على بن ابى طالب الذى ألهم بمواقفه وحكمته طوال نضاله الباسل ، بعد قيام دولة الاسلام ، كل عباقرة الحضارة الاسلامية ، وارشدهم بكلماته عن العلم الى طريق الحضارة والمدنية .

ان الامام على بن أبى طالب ، رئيس الدولة بعد عثمان بن عفان ، جعل العلم لا ينفصل عن الدين ، وعبر فى كل مواقفه من اعداء الاسلام ، عن حتمية ارتباط الدين بالعلم ، بل نراه كما علمه رسول الله ورباه ، يعلن أن كل وعاء يضيق بما جعل فيه .. الا وعاء العلم فانه يتسع .. !

« على الدالى »

حجر الفلاسفة

قصة ابو بكر الرازى اول مكتشف لخيوط الجـــراحة فى التاريخ وصـــاحب نظرية البحث العلمى التجـــريبى

انه حجر الحكمة .. ألم تسمعوا انه عند الرازى ؟.. الملاعق فى بيته من الذهب والاطباق ايضا صفراء براقة .. كـل اوانى بيته ذهبية .. لقد اكتشف حجر الحكمة ! وكان ذلك منذ الف وخمســين عاما .. !

وحجر الحكمة هو امل الانسان القـديم .. وايضـــا كان اكسير الحياة !

وحجر الحكمة هو امل الفلاسفة هو الذى يحول المعادن الى ذهب ..

واكسير الحياة يجعل الانسان يعيش أطول العمر .. لـكى يستمتع بالذهب ! اى حلم .. ؟

كان حلما فى راس الحكام الذين ارادوا الخلود والسـلطة العريضة . اما راس الفرد من الرعية فلم يكن يملؤه الا فكرة العدل وان يأتى اليه العدل بدل الذهب والأمن على حريته بدل أكسير الحـــياة ..

لكن كيف انتشرت الشائعات عن اكسير الحياة ومن حجر الفلاسفة ؟

ومن هو الرازى .. ؟

الطب للفقـراء ايضـا ..

لم يكن الرازى ساحرا .. ولم يكن مشعوذا .. بل كان اعظم علماء الطب والكيمياء ، واستاذ اجيال الحكمة اى العلوم فى الشرق وفى الغرب طوال سبعة قرون !

وصورته الان تطالع زوار المتحف العلمى فى شارع سان جرمان بباريس .. ذلك لأن كلية الطب الباريسية ظلت حتى القرن السابع عشر وليس فيها مرجع علمى واحد عن علوم الطب سوى كتاب « الحاوى » باجزائه الثلاثين .. ومؤلف الكتاب هو ابو بكر محمد بن زكريا الرازى ، مكتشف خيوط الجراحة والجدرى والحصبة ومؤسس نظرية علاج الامراض المزمنة وهو بذلك يهدم نظرية علماء الطب الاغريق .. الذين نادوا على لسان استاذهم « ابوقراط » بالامتناع عن معالجة الاشخاص الذين لا امل فى شفائهم لان فن الطب كما قال « ابو قراط » لا نفع فيه لهؤلاء ..

ومن هذا المفهوم غير الانسانى خرجت قوانين فى اوروبا . تعاقب اصحاب الامراض المزمنة وتلقى بهم فى السجون وتضع ارجلهم وايديهم فى القيود الحديدية .. وكانوا يضربونهم حتى الموت !

فمن هو الرازى الذى احدث هذا الانقلاب الانسانى فى فنون الطب والصيدلة والكيمياء والموسيقى .. وامراض الاطفال .. وامراض العيون .. فهو الذى اكتشف اثر الضوء على حدقة العين واتساعها ليلا وانكماشها نهارا .. وبذلك استطاع ان يعالج الامراض العصبية !

وهو اول طبيب فى العالم يؤلف كتابا عن « طب الفقراء »
وكان يعالج الفقراء بالمجان ويعطيهم الدواء الذى يعده بنفسه بالمجان .. بل يمنحهم مساعدات مالية ..

انه ابو بكر الرازى .. صاحب الصوت الرخيم والعزف الرائع على اوتار العود !

وكانت المستشفيات الحديثة التى قامت فى المدن الاسلامية مستشفيات ملأى بالاسرة النظيفة وحول الاسرة اطباء وصيادلة .

وها هم المرضى على الاسرة قد شعروا بالأمل .. وقد عرفوا ان العلم سيبرىء اسقامهم وليس الدجل والشعوذة كما كان الحال قبل بعث الحضارة ..

والمستشفى كان اسمه « البامارستان » فى ذلك الزمان ؟
وقد هبط الملاك على البامارستان فى ذلك الصباح .. وامتلأ المستشفى بانغام الموسيقى ؟

من اين جاء هذا الرجل ؟

اهو ساحر ؟ .. أم تراه قد هبط على البامارستان من كوكب مجهول . لا أحد من بين المرضى .. كان يعرف هذا الشاب المجهول على اية حال غير أنهم أحبوه .. كانوا جميعا على الاسرة يستمعون الى الموسيقى فى ذهول والامهم تتلاشى كما لو كانت الحان ذلك الشاب .. الذى لم يتجاوز الثلاثين تملأ وجدانهم بالمعجزة ! !

اهى الموسيقى اذن .. تلك النظرية الجديدة التى اكتشفها العلماء فى هذا القرن العشرين .. والتى تقول ان الموسيقى تساعد على شفاء المرضى ؟

لكن رجل الحضارة الاسلامية اكتشف النظرية قبلهم بالف عام !

هكذا بدات قصة اعظم طبيب وصيدلى وكيميائى فى تاريخ الحضارات ..

وهو اعظم طبيب لأنه علم اجيال الاطباء فى الشرق والغرب طوال ثمانية قرون !

ولنبدا مع الرازى رحلته العلمية الحافلة بالانتصار والفتوحات الحضارية .. فهو فى هذه الرحلة علامة على الطريق .. فاذا تأملنا نحن فيها .. عرفنا قيمة تراثنا ثم عرفنا بعد ان نهتدى بالتراث اين الطريق .. الى الدولة العصرية !

لقد أدرك ابو بكر الرازى .. وهو الموسيقار الفنان .. ان الموسيقى غير كافية للتخفيف من الام المرضى .. وهوايته الان تخفيف الام البشر . بل القضاء على الالام نفسها . ولا مفر من العلم .. ليبدأ اذن ىتعلم رغم بلوغه الثلاثين .. مهنة الطب والصيدلة !

وفى ذلك الزمان كان يوجد طبيب مشهور اسمه « الطبرى » اعتنق الاسلام عن ايمان وعن حب لتعاليمه ، وقرر ابو بكر الرازى ان يكون تلميذا للطبرى .

وبدات القصة .. بدأت من حيث قال رسول الاسلام .. « اطلبوا العلم من المهد الى اللحد » .

واستطاع التلميذ ان يتعلم علوم الطب .. فى الثلاثين .. الم يقل رسول الاسلام عليه السلام : « ان طلب العلم فريضة » وحتى اللحد !

وعندما انتهى الرازى من تحصيل علوم الطب بدأ يدرس نظريات الاقدمين من علماء الحضارة اليونانية .. ويكتشف العبقرى ان فى علوم الطب فى ذلك الزمان نظريات غير صحيحة ويكتشف خزعبلات لا أصل لها .. والى جانب كتابات جالينوس

الفذة فى علوم الطب توجد كتابات لجالينوس نفسه ليست سليمة .. ولا قيمة لها .. وهكذا عرف الرازى اسلوب البحث العلمى التجريبى .. والذى لا يعتمد على النقل والاقتباس !

وهو نفسه اسلوب القرن العشرين الان فى البحث العلمى !

اما حياته كفيلسوف فقد جرت عليه المتاعب الكبرى فاتهموه فى دينه .. رغم انه كان اقرب الى روح الانسان من الأئمة الكبار .. لأنه عاش ومات مثل الفقراء .. بل لقد اصيب فى عمره بما لم يصب به عالم من قبله او من بعده .. فلم يكن يجد قوت يومه فى اخريات ايامه فهو شهيد !

ها نحن معه فى معمله .. او فى خلوته العلمية .

وهو صاحب فكرة .. العلاج بالغذاء المفيد .. بدل العقاقير والادوية .. نستمع اليه يقول :

« وحيث المواد الغذائية تشفى وتنفع فعليك بها دون العقاقير وحيث المواد البسيطة تكفى فعليك بها دون المركبة » .

ومنهاجه فى البحث العلمى هو التجربة .. فكان يجرب كل العقاقير الجديدة قبل ان يصفها للناس .. ويدرس تأثيرها على الحيوانات ..

وها هو الرازى السيمائى .. اى الكيمائى .. يبدأ انتصاراته فى علوم الكيمياء .. فهو ليس موسيقارا فقط وليس طبيبا او صيدليا فقط .. بل هو كما قالوا عنه قد جعل من علم الكيمياء علما صحيحا منظما .. فكأن فى تجاربه الكيمائية داخل معمله الخاص لا يخضع لغير الحقائق اما الشطحات العقلية للمشعوذين والدجالين فقد طرحها بعيدا فكان اول عالم لا يؤمن الا بالعلم .. من التجربة .

وكانت فكرة او نظرية « حجر الفلاسفة » تملأ عقـول السيمائيين اى علماء الكيمياء منذ عصر قدماء المصريين حتى عصر اليـونان حتى الفرس والعرب ..

غير ان اى علم يبدأ بشطحات خيالية .. فعلم التنجيم تمخض عن علم الفلك والفضاء .. وعلوم السحر والشعوذة .. قامت على انقاضها علوم الطب والصيدلة .. وعلم الكيميـاء تطور واتسـع مداه لكثرة التجارب الخيالية التى قام بها علماء الكيمياء وهم فى رحلتهم الاسطورية للبحث عن حجر الفلاسفة !

اى عن الذهب ..

العلم والانســان ..

وكانت هناك حكمة للعلماء المسلمين فى ذلك الزمان .. وهى عن تعامل الطبيب مع المرضى فيقولون عن ذلك :

« ان من اهتم بمعالجة اللؤلؤ وجب عليه دائما ان يحافظ على جماله ، كذلك فان الذى يتعاطى مداواة الجسـم البشرى ـ اجمـل ما خلق الله فى الدنيـا ـ عليـه ايضـا ان يحـرص كل الحرص .. وان يكون الحب هو رائده فى عمله » .

وتلك كانت فلسفة الرازى العظيم .. ولنقرأ ما جـاء فى « عيون الانباء » عن اخلاق الرازى ..

« وكان كريمـا متفضــلا بارا بالناس حسن الرافة بالفقـراء والاعلاء ـ المرضى ـ حتى كان يجرى عليهم الجرايات الواسعة ويمرضـهم » .

ووصفه « البيرونى » فقال عن حياته الدراسية ..

« كان دائم الدروس شديدا لاتباعه يضع سراجه فى مشـكاة على حائط يواجهه . مسندا كتابه اليه .. فاذا غلبه النعاس سقط

الكتاب من يده فأيقظه ليعود الى ما هو عليه . ولنستمع الى اقوال الرازى نفسه وهو فى مسيرته العلمية الحضارية التى هـزت العالم بعد ذلك .. ها هو يقول عن ضرورة ان يكون الانسان مثقفا .

« الاستكثار من قراءة كتب الحكماء والاشراف على اسرارهم نافع لكل حكيم عظيم الخطر » .

وقوله عن عظمة التجربة وخطرها فى ممارسة العلم :

« العمر يقصر عن الوقوف على فعل كل نبات فى الارض فعليك بما اشتهر مما اجمع عليه الناس ودع الشاذ .. واقتصر على ما جربته » . ومن محاضراته العلمية للاطباء من تلاميذه :

« من لم يعن بالامور الطبيعية والعلوم الفلسفية والقوانين المنطقية وعدل الى اللذات الدنيوية .. ما نهمه فى علمه لا سـيما فى صناعة الطب » .

فريد زمانه ..

ومن نصيحته لتلاميذه من الاطباء

« ينبغى أن تكون حالة الطبيب معتدلة لا مقبلا على الدنيا كلية ولا معرضا عن الاخرة كلية .. فيكون بين الرغبة والرهبة » .

« ان استطاع الحكيم ان يعالج بالاغذية دون الادوية فقـد وافق السـعادة » ..

وعن دعاة الطب ممن لا ثقافة لهم المؤمنين بالتقليد فقط يقول !

« الاطباء الأميون والمقلدون والأحداث الذين لا تجربة لهم .. ومن قلت عنايته وكثرت شهواته .. قتلة » . اى مثلهم مثـل السفاحين !!

ونأتي الى اكتشافاته التى اسهمت فى بناء الحضارة البشرية قبل أن نأتى على مأساته العظمى .. وعن نهايته المروعة ..

فمن مؤلفاته كتاب فى الحصبة والجدرى .. وهو أول كتاب فى تاريخ الطب عن الحصبة والجدرى ..

وقد ترجم هذا الكتاب الى اللاتينية عام ١٥٦٥ ميلادية .. ويقول « بيوبرجر » احد مؤرخى الطب « هذا الكتاب ولا ريب انفس الكتب الطبية وله فى تاريخ علم الأوبئة أعظم منزلة من جهة انه أقدم بحث عن الجدرى » .

واهم كتب الرازى هو « الحاوى » و « المنصورى » نسبة الى امير خراسان « المنصور » الذى تسبب فى مأساة الرازى .

وتأتى بعد ذلك اكتشافاته فى الكيمياء ..

وهو أول من استطاع فى التاريخ تحضير « الكحول » بتقطير المواد النشوية والسكرية وادخل استعماله فى الصيدليات واول من وضع تقسيما علميا للمواد الكيماوية واول من ابتكر خيوط الجراحة من أمعاء الحيوانات .

ويقول عنه العالم الانجليزى « ستابلتون » :

« يجب ان نعتبر الرازى واحدا من اعظم الباحثين وراء المعرفة الذين عرفهم التاريخ وليس هو فقط وحيد عصره وفريد زمانه .. لكنه بقى بلا ند له حتى بزوغ فجر العلم الحديث فى أوروبا عند ظهور غليليو وروبرت بيل » .

صراع .. والحرب خدعة :

اما حياة الرازى فقد كانت حافلة بالصراع والمأساة ..

ها هو يصبح رئيسا لمستشفى بغداد ثم ها هو يعود الى مسقط راسه فى « الرى » بالقرب من طهران ثم ها هو يتولى التعليم فى مستشفى « الرى » وهاهو امير خراسان يسمع عن معجزاته العلمية والامير لا يهمه العلم بل يهتم بحجر الفلاسفة لقد سمع ان الرازى سيمائى اى كيمائى وانه يصنع المعجزات ..

هكذا طبقت شهرته الافاق وظن الناس انه ساحر واصبحت حكاياته كأساطير مشوقة فى المدن وفى الصحارى .

واستدعاه الامير واسمه « منصور بن اسحاق » وكان شرها يريد الذهب .. وساله عن « حجر الفلاسفة » .

كان الرازى يحتاج الى مساعدة مادية لينشىء معمله الخطير .. وكان فقيرا لا يملك ثروة تمكنه من الاستقلال بمسيرته العلمية عن السلطة !

وكان يؤمن بان الصراع بينه كعالم وفيلسوف وصاحب اعظم مدرسة فى العلوم فى عصره .. وبين حساده والحاقدين من المشعوذين هو صراع قد يوقف مسيرته العلمية ويسد امامه طريق البحث العلمى .. والحرب خدعة !

ولن يتحقق الحلم الا اذا توفر المال .. اجهزة المعمل .. المواد المطلوبة .. كل شىء فى هذا الانطلاق الخطير فى بحر السيمياء يحتاج الى أموال الامير .. الباحث عن الذهب لا عن العلم !

وكان الرازى يعلم انه لن يحصل على الذهب فى معمله الكبير بل كان واثقا ان نهايته ستكون مروعة اذا لم يحقق حلم امير خراسان « الجاهل السفاح ! » .

ومضت الاعوام والرازى يجرى ابحاثه فى الكيمياء ويصل الى نتائج علمية غيرت وجه العلم وطرق البحث .. ووضعته على قمة صناع الحضارات فى كل تاريخ البشرية منذ هبط آدم على الارض ..

ومع ذلك فكل هذا لا يرضى الامير .. فلا يشفع له عند الامير .. فهو من عباد الذهب والجبروت .

انه امير من المحاسيب فى بلاط الخليفة . وليس اميرا من اصحاب المسئولية الذين نصت على وجودهم تعاليم الاسلام الديمقراطية !

من اجل هذا حدثت المأساة عندما انتهى الرازى من ابحاثه العلمية والتى ضمنها كتابه الخطير .. الذى تعلمت منه اوروبا بعد ذلك اصول العلوم فى الطب والكيمياء والصيدلة .. والجراحة والأوبئة ..

كان كتابا ضخما .. وكانت فرحة الرازى به لا توصف .. وهو يحمله فى طريقه الى قصر الامير .

جئت يامولاى بالكتاب .

ونظر اليه الامير وقد تلاحقت ضربات قلبه لهفة على حجر الفلاسفة ، اى على الذهب وليس على ما فى الكتاب من علوم .. سوف تغير من تاريخ العلوم بعد ذلك .

وقال الامير : اين حجر الفلاسفة ..اهو هنا ؟؟

ـ لا ، ايها الامير .. هنا علوم بشرية تنفع الناس . وتفيد العباد .. وتخفف عنهم !

فماذا حدث ؟

هل صفق الامير فرحا بما ستجده الرعية من علوم بشرية ؟ كلا ..

بل امر منصور حاجبه ان يضرب أبا بكر الرازى على راسه بالكتاب حتى تتمزق جلدته وضربه الحاجب مرة ومرات فوق راسه .. واصيب العبقرى العظيم بالعمى .. ولم يعد يرى الدنيا ومن فيها !

وها هو فى محنته العظمى ياتى اليه طبيب من تلاميذه ويقول له انه سيجرى له جراحة يرد بها بصره اليه .

لكن الرازى كان قد سئم الدنيا وكل من فى الدنيا .. وها هى كبرياء الفنان تتعاظم ويصل موقف الرازى من السلطة التى حطمت حياته الى رفض كامل لوجوده تحت رايتها فى خراسان

ولا يقبل الرازى ان يعود اليه بصره .. فيرفض الجراحة .. ويموت وهو فى السبعين من عمره فقيرا اعمى . لا يجد قوت يومه . وهو الذى قدم للبشرية اكثر من مائة مخطوط علمى فى كل فروع العلم .. حتى الرياضة .

لكنه أيقظ العالم بعد موته على حقيقة هى اعظم حقائق هذا القرن العشرين الا وهى الايمان بالعقل فلا قيد على العقل البشرى.

فكرة الحضارة الاسلامية

لقد عاش الرازى مؤمنا بالعلم وبالله ، ولم يمد يده للمال الا بقدر ما ينفع العلم لخير الجماهير .. بل وضع موازين انسانية عندما الف كتابا فى الطب خاصا بالفقراء .. حتى لا ترهقهم اثمان الادوية او يعجزوا عن العلاج وفى اكثر من مرة اختلط الامر على كل من كتب عن الرازى .. هل هو عبقرى الطب .. أم عبقرى الكيمياء اى السيمياء ؟ !

غير ان الباحث فى مراجع القدماء يجد حقيقة هامة عن الرازى وهى أنه كان اول من وضع بذرة الحضارة الاسلامية بمقاييس التعاليم المحمدية . فهو اذا قام بعمل أتقنه .. وهو اذا عرف شيئا علم هذا الشىء لغيره من المسلمين .

ولغير المسلمين كما حدث بعد وفاته عندما اصبحت كتبه هى مشعل الضوء الباهر للباحثين عن الحضارة فى اوروبا طوال سبعة قرون ..

واذا كان المؤرخون الاجانب قد اطلقوا على هذا العبقرى المسلم أحد اعاظم الاطباء فى تاريخ البشرية عندما قدموا مؤلفاته لطلاب العلم فى اوروبا فان لقب كيميائى قد لصق به أيضا .. فهو فى علم الكيمياء من الرواد .. وفى عيون الانباء يتحدث الكتاب عن الرازى الكيميائى فيقول :



« كان « الرازى » فى اول أمره قد عنى بعلم السيمياء وما يتعلق بهذا الفن وله تصانيف ايضا فى ذلك وكان الرازى يقول :

« انا لا اسمى فيلسوفا الا من كان قد تعلم صنعة الكيمياء لانه قد استغنى عن التكسب من اوساخ الناس وتنزه عما فى أيديهم ولم يحتج اليهم » .

واذا كان « ستابلتون » وهو العالم الانجليزى المعاصر قد قرر دراسة كتب الرازى فذلك لكى يخرج على الدنيا بهذه الحقيقة المثيرة وهى ان الرازى كما قال عنه ذلك العالم الانجليزى ليس له ند حتى بزوغ فجر العام الحديث .

وقبل « ستابلتون » بقرون جاء أكثر علماء القرون الوسطى من الاوربيين ليؤكدوا هذه الحقيقة عن هذا العبقرى المسلم وذلك بنشر كتبه مترجمة الى لغات اوروبا بعد ان تقرر دراستها فى المعاهد العليا والجامعات .. وهكذا كان هذا العبقرى المسلم هو اول من علم اوروبا فى العصر الحديث اصول علم الطب .. والكيمياء .. مع غيره من عباقرة الحضارة الاسلامية .. الذين سياتى ذكرهم فى هذا الكتاب ..

واذا كان الرازى كما قال عنه المؤرخون هو مكتشف اسلوب البحث العلمى التجريبى فمعنى ذلك ان فضل الحضارة الاسلامية على اوروبا ليس له حدود .

ان اسلوب البحث العلمى التجريبى هو الذى جعل انسان القرن العشرين يصل الى القمر !!

لكن كيف كان الرازى يمارس هذا الاسلوب ؟؟

كان يفعل ذلك لمصلحة الأجيال العلمية من بعده فنراه يسجل كل ملاحظاته على مرضاه وهو الطبيب المشهور فى بغداد وفى كل عواصم الامة الاسلامية ..»

ولنستمع اليه يصف لنا احدى تجاربه التى سجلها مع مئات غيرها من التجارب العلمية فى الطب .

ها هو يصف لنا مريضا اصيب بداء الثعلبة فى راسه وهو مرض معروف ..

ومن الغريب ان علاج هذا المرض فى هذا العصر الحديث هو نفسه العلاج الذى حدده عبقرى الحضارة الاسلامية !!

وليستمع اليه يصف لنا التجربة وعلاجها :

« جاءنى رجل من اهل « دارى » وبه داء الثعلب فى راسه قدر اصبعين فأشرت عليه ان يدلكه بخرقة حتى يكاد يدمى ثم يدلكه ببصل ، ففعل ذلك واسرف فى ذلك مرات كثيرة فنعط فامرت ان يطلى عليه شحم الدجاج فسكن اللذع ثم تجاوز فنبت شعره فى نحو شهر احسن واشد سوادا وتكاثفا من الاصل » .

وقد سجل الرازى فى كتابه « الحاوى » كل تجاربه العلمية ونتائج هذه التجارب لتصبح بعد ذلك مشعلا وهاجا اضاء ظلمات الجهل فى اوروبا طوال سبعة قرون ..

وقد قام الدكتور « مايرهوف » وهو من علماء الطب الاوروبيين المشهورين بتحقيق كل ما جاء فى كتاب « الحاوى » من تجارب الرازى وقام بنشرها باللغة الانجليزية مع تعريف بالعبقرى المسلم .

ذلك كان واحدا من اعظم عباقرة التاريخ الانسانى فى العلوم البشرية .. عاش للعلم واستشهد وهو فى مسيرته العظمى المهابة فى سبيل بناء الحضارة البشرية .

اليس استشهادا ان يفقد الانسان بصره بضربة من جاهل شره فوق راسه !!

ذلك الراس النبيل الذى حمل معارف بشرية خرجت منه الى الدنيا لتصبح البشرية بفضلها اقدر على مواجهة المرض والآلام .

ومع ذلك فأين هو تراث الرازى الشهيد .. الذى حطم نظريات ابقراط وجالينوس لماذا لا يخلد ليصبح جيل الأمة القادم شامخا براسه .. قادرا على الابتكار والابداع وهو يصنع الحضارة .. غير خائف او متردد . أو بلا ثقة فى مستقبله . كما اراد له اعداء الامة . هؤلاء الذين قرروا بعد ان جاءت جيوشهم الى بلاد المسلمين ان يعزلوا الامة المسلمة عن تراثها .. حتى لا تبعث من جديد !!

مهندس النيل والشمس

قصة ابن الهيثم اول مهندس فكر فى السد العالى ومكتشف علم البصريات التجريبى

« كل مذهبين مختلفين اما ان يكون احدهما صادقا والآخر كاذبا واما ان يكونا جميعا كاذبين واما ان يكونا جميعا يؤديان الى معنى واحد هو الحقيقة . فاذا تحقق فى البحث وانعم فى النظر ظهر الاتفاق وانتهى الخلاف »

« ابن الهيثم »

اذا كانت هناك قصة عن حضارتنا الاسلامية تؤكد ارتباط العلم بالايمان ، وحتمية ان يكون اهل العلم فى بلادنا من المؤمنين بالله وبرسله وملائكته فهى هذه القصة لاستاذ الاساتذة فى علم الضوء وعلوم الهندسة على اختلافها .. قصة عبر صاحبها وبطلها ابن الهيثم عن موقف حضارى مهاب نابع من تعاليم الاسلام واحاديث رسول الاسلام عليه الصلاة والسلام . وهذا الموقف هو نقطة الانطلاق نحو بناء الحضارة الكبرى بعقل يؤمن بالعلم الى ابعد الحدود لكن الايمان بالله وبالقرآن هو سبب هذا الانطلاق الحضارى وتفوقه حتى ان التاريخ البشرى كله فى جميع

العصور لم يحدثنا عن علماء جمعوا بين الاكتشاف العلمى المؤثر فى تاريخ البشر وبين الايمان بالله وبرسله مثلما فعل هذا العبقرى وكل عباقرة الحضارة الاسلامية .. وهو المهندس الذى جاء الى بلاد النيل بدعوة من الحاكم بامر الله ، عندما سمع الحاكم بأمر الله ان لديه مشروعا هندسيا يتحكم فى مياه نهر النيل .. عند اسوان !

ثم أمر بسجنه مدى الحياة بعد ذلك .. بعد ان كاد يبطش به !

حدث هذا منذ الف عام ..

اسمه الحسن ابو علـى بن الحسن بن الهيثم .. مؤسس علم البصريات التجريبى ..

عاش بين البصرة وبغداد والقاهرة .. فى القرن الرابع الهجرى اى فى القرن العاشر الميلادى ثم مات فى القاهرة تحت قبة بجوار الجامع الأزهر .. فقد كان شديد التدين .

اما حياته فهى حياة رجل الحضارة الفذ .. ولم يشهد تاريخ الحضارات ... مثل هذا العبقرى فى سبقه لمن جاءوا من بعده بسبعمائة عام والف عام .. بل وسبقه لمن جاءوا من قبله بالاف السنين !

فهو صاحب نظرية البحث العلمى الحديث ..ومايعرف بالتفكير العلمى فى الدول العصرية الآن .. فى القرن العشرين !

وهى النظرية التى تنسب الى (فرنسيس باكون) لكنه سبق باكون .

والى ابن الهيثم تنسب انتصارات ليوناردو دافنشى العلمية .. وكذلك اكتشافات جاليليو .. وهما من اساطين الحضارة الاوروبية بعد عصر النهضة .

لنستمع الى ابن الهيثم يتحدث عن نظريته العلمية فى البحث والتجريب وهى نفسها نظرية هذا العصر الان ٠

ان الحواس معرضة للخطأ ٠٠ وكذلك العقل أيضا ٠٠ يخطىء فى القياس وفى المعرفة ٠٠ لكن من الممكن معرفة علل هذه الاخطاء ٠

كيف ٠٠ ؟

ابن الهيثم عرف علل هذه الاخطاء ٠٠ اى اكتشف الاسلوب العلمى الصحيح فى البحث والترقى ، فهو يقول عن الكشف العلمى :

« نبتدىء فى البحث باستقراء الموجودات وتصفح احوال المبصرات وتمييز خواص الجزئيات ٠٠ ثم نترقى فى البحث والمقاييس على التدريج والترتيب مع انتقاد المقدمات .. والتحفظ فى النتائج ونجعل غرضنا فى جميع ما نستقريه ونتصفحه استعمال العدل .. لا اتباع الهوى .. ونتحرى سائر ما نميزه طلبا للحق .. لا ميلا مع الآراء » .

وهذه الكلمات والاحداث الحضارية ننقلها من مصادرها الاصلية من كتب ابن الهيثم ثم من مراجع الحضارة الاسلامية المؤكدة مثل ابن ابى أصيبعه والبيهقى وغيرهما ومن دراسات المستشرقين والمؤرخين ٠٠ العرب منهم والاجانب ٠٠

كيف ظهر انسان الحضارة الاسلامية صاحب نظرية التفكير العلمى فى الدولة العصرية ؟

وكيف قام هذا الانسان العالم بعملية الانقاذ العظمى للتراث البشرى وصحح اخطاءه واضاف اليه ٠٠ كما يتساءل مستشرق المانى ؟

لقد بدات الفلسفة الاسلامية من وحى تعاليم رسول الاسلام الذى نادى الأمة بطلب العلم ولو فى الصين ٠٠ وحدد قيمة طالب العلم .. بأن مداد قلمه أغلى من دم الشهداء ..

وما معنى أن يطلب الانسان العلم .. حتى لو كان العلم فى الصين ؟ معناه ان ياخذ العلم حتى ولو من كافر ..

وروح الفلسفة الاسلامية .. تميل الى التواضع ورب عالم قتله جهله كما قال الامام على .

وكان ابن الهيثم نموذجا لرجل الحضارة المتواضع .. المتعبد الزاهد الملتزم بالشريعة ..

ها هو ابن الهيثم مثل غيره من المثقفين المسلمين فى القرن الرابع الهجرى . يسعى الى طلب العلم .. لكن أين ؟

هل كانت هناك جامعات .. ومعاهد للعلم والبحث ؟

كلا .. بل كان يوجد أساتذة يأخذ عنهم ويستمع اليهم طالب العلم .. وكانت هناك مكتبات تضم تراث الهند والفرس واليونان والصين .. مترجمة الى اللغة العربية .. ومن يطلب العلم سوف يجده فالصين بتراثها والفرس بتراثهم والاغريق أيضا قد جاءوا جميعا الى الناس فى البلاد الاسلامية وتحقق مانادى به رسول الاسلام ..

أما تراث الاغريق .. فقد تم نقله ودراسته وهضمه خلال مائة عام وأضيف اليه وكشف العلماء العرب عن الخطأ فيه وعن الصواب .. وكذلك علوم الهند وفارس فى الحساب والفلك وأصبحت علوم الفلسفة اليونانية وكتب الاغريق من العلم الطبيعى وما وراء الطبيعة كلها مطروحة للبحث والدراسة بأحرف عربية ..

كانت اللغة العربية هى لغة الحضارة فى العالم كله فى ذلك العصر المهيب .

وهكذا تم للحضارة الاسلامية القيام بمعجزتها الكبرى .. فى انقاذ البعث الحضارى للبشرية جمعاء ، من الجمود والتبدد ، واعطت الحضارة الاسلامية مشعل الحضارة مشرقا مهابا .. لمن

جاءوا من بعد ذلك حتى لايضيع الطريق امام البشرية فتطبق عليها الظلمات .

وفى سبيل طلب العلم ·· لم يستقر ابن الهيثم فى مسقط رأسه بالبصرة فهاهو يتنقل بين عواصم البلاد الاسلامية .. بعد أن تم له تحصيل علوم الأغريق والفرس والهند ·· وما صنفه العلماء العرب واكتشفوه ·· بعد قيام الحضارة الاسلاميه فالى جانب علوم الأغريق والفرس والهند ·· كانت توجد علوم جديدة واكتشافات عظيمة للعلماء المسلمين ·· من العمالقة الخالدين فى التاريخ ·· مثل الكندى والفارابى وابن سينا مؤسس علم الجيولوجيا والرازى عبقرى الطب والصيدلة والكيمياء وثابت بن قرة وحنين بن اسحق فى الفلك ·· والخوارزمى ·· فى الرياضيات وغير هؤلاء كثيرون سبقوا ابن الهيثم فى رحلة الحضارة والبحث العلمى ·

ابن الهيثم وأرشميدس

هاهو يبدأ فى اكتشافاته وفى تصنيف كتبه الخطيرة·· بعد أن انتهى من دراساته فى التراث البشرى العلمى .. وقد اهتم كثيرا بالعلم الطبيعى .. فدرس اوقليدس ومخروطات ابولونيوس وابحاث ارشميدس فى مراكز الاثقال والمرايا المحرقة وما ألفه بطليموس فى المناظر وماكتبه فى الفلك واهتم بالفلسفة بكل فروعها المنطق والطبيعة وما بعد الطبيعة ·

هكذا كان رجل الحضارة الاسلامية تراه طبيبا وفلكيا وكيمائيا ومهندسا وفيلسوفا ··

ولنستمع اليه يتحدث عن هويته محددا هدفه من وراء العلم !

« وانا ما مدت لى الحياة باذل جهدى ومستفرغ قوتى فى مثل ذلك ، مستوحيا منه امورا ثلاثة : احدها افادة من يطلب الحق ويؤثره فى حياتى وبعد مماتى · والآخر انى جعلت ذلك ارتياضا لى

بهذه الأمور والثبات تصور ما اتقنه فكرى من تلك العلوم . والثالث انى صيرته ذخيرة . .وعدة لزمان الشيخوخة واوان الهرم » .

لقد انتهى الآن من تصنيف هذه الكتب .. ولايزال امامه الاكتشاف العظيم .. الذى سيصل اليه وهو فى مصر .. فى سجنه .. وهو كتاب « المناظر » وما حواه من نظريات فى علوم الضوء .

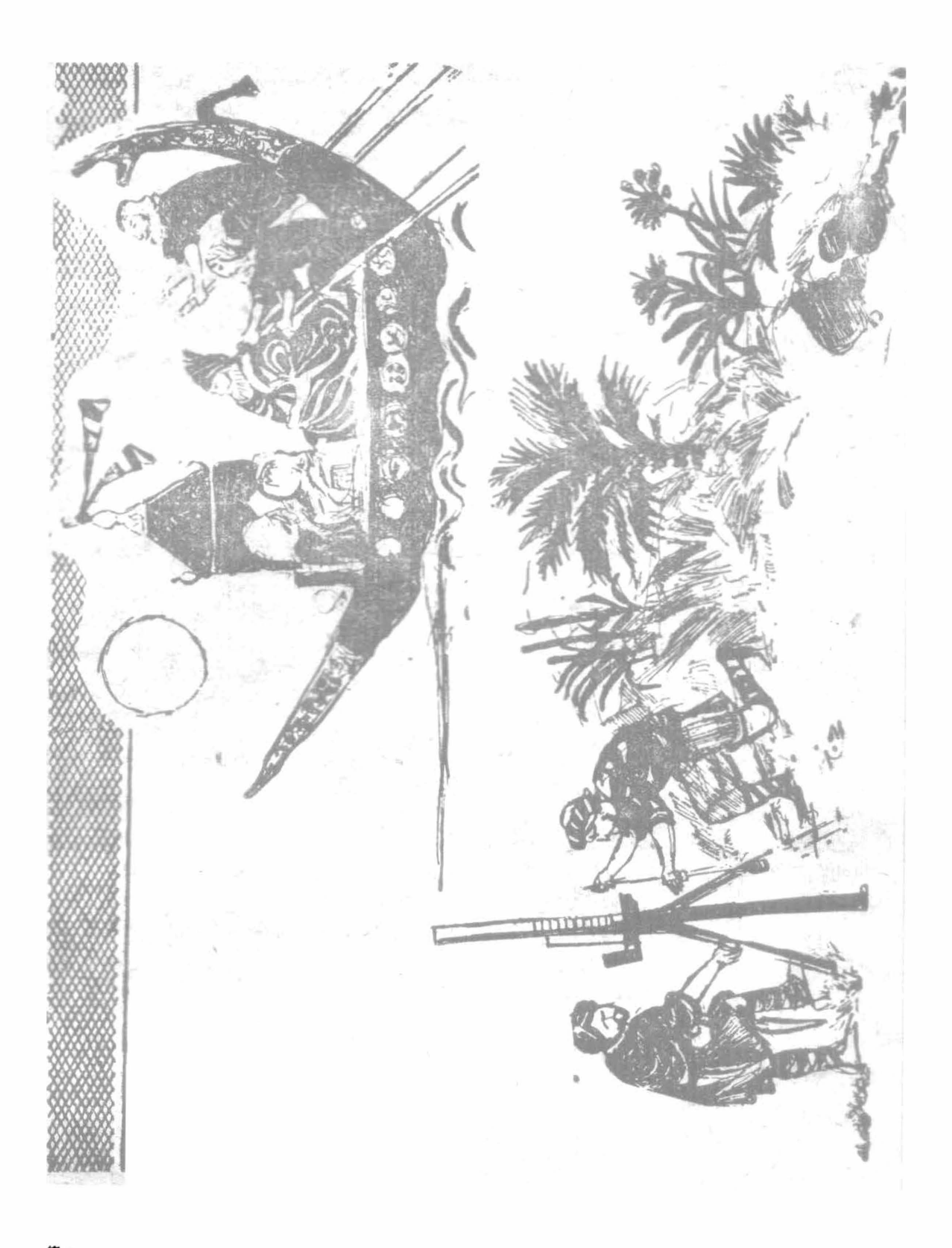
اما هذه الكتب فهى كتاب عنوانه « البرهان واحد » وكتاب « تباين مذهب الجبريين والمنجمين » والجامع فى أصول الحساب .. وكلهما سلك فى تأليفها منهج الاستقلال الفكرى ولم يكن مقلداً .. بل مكتشفا على الدوام .. فهو يختلف مع أوقليدس فى الجامع فى أصول الحساب .. ويشرح هو منهجه العلمى فى هذا الكتاب فيقول :

« استخرجت اصوله لجميع انواع الحساب من اوضاع اوقليدس فى اصول الهندسة والعدد وجعلت السلوك فى استخراج المسائل الحسابيه بالتحليل الهندسى والتقدير العددى وعدلت فيه من أوضاع الجبريين والفاظهم »

ونراه فى كتابه « الاصول الهندسية والعددية » يقول :

كتاب جمعت فيه الاصول الهندسية والعددية ونوعت فيه الاصول وقسمتها وبرهنت عليها ببراهين نظمتها من الأمور التعليمية الحبة والمنطقية حتى انتظم ذلك .

ولكى نعرف مدى خطورة اكتشافاته العلمية .. يكفى ان نعرف أنه اوضح الشك فى نظرية ارشميدس فى قسمة الزوايا ثلاثة اقسام .. ولم يكن ارشميدس نفسه قد برهن عليها .



تصحيح علوم الاغريق ..

من اخطر اكتشافاته نظرية « كيفية الابصار » والتى اثبت فيها خطأ علماء الاغريق فى كيفية انعكاس الصور .. بل اثبت خطا كل النظريات السابقة فى كيفية الابصار ؟

فالحقائق العلمية ليست غايات ينتهى اليها العلم كما يقول الفلاسفة على اختلافهم وتلك الحقائق لا يقف عندها التصور البشرى .. فهى ليست ثابتة دائما فقد نرى نظرية علمية صحيحة فى وقت ما .. لأنها تتفق ومستوى العلوم فى ذلك الوقت لكننا نراها فى زمان آخر قد عدلت واستبدلت .. او ربما تنبذ وتطرح نهائيا .. وتاريخ العلم ملىء بذلك ..

وابن الهيثم اثبت ذلك بنظرية جديدة الغت نظرية الاغريق فى كيفية الابصار وطرحتها بعيدا .

وفى مقدمة كتاب (المناظر) لابن الهيثم يشرح هو ذلك وكيف انه لا مفر امام العلماء من التزام التفكير العلمى فى ابحاثهم – حتى لا تضيع الحقائق وتتبدد الجهود العلمية .

لقد كان العلماء الاغريق وغيرهم يتأرجحون حول نظريتين فى كيفية الابصار . وجاء ابن الهيثم وقال ان العين لا تبصر بأشعة ترسلها الى الاشياء كما يقول هؤلاء العلماء بل يحدث الابصار .. بعكس ذلك فالاشياء ترسل الاشعة الى العين فتراها بواسطة عدستها ..

وكان يجرى تجاربه بآلات من اختراعه ..

وقام بتجارب علمية فى الضوء بآلة اسماها « النقب » وهى صورة لآلة التصوير فيما بعد ..

وهو الذى اكتشف تعليلا لكثافة مختلف الطبقات فى الجو وفى الماء .. ومدى انكسار الضوء فى كل منها .. وقام

بحساب علو طبقة الهواء عن سطح الارض . وهو خمسة عشر كيلو مترا ولم يسبقه احـد من علماء الاغـريق او غيرهم الى ذلك .

وقد سبق ارسطو فى ابحاثه حول تعليل الهلال والفسق وقوس قزح وهى المسائل التى لم يستطع ارسطو شرحها فى كتبه .. ولم يستطع غيره ايضا حتى جاء ابن الهيثم ..

واصبحت نظريات ابن الهيثم مسيطرة على الابحاث العلمية الاوربيـة حتى القـرن العشرين وذلك فى علم الفيزياء والبصريات .. وكان كتاب (المناظر) قد ترجم الى اللاتينيـة ثم الى كل اللغات الحية بعد ذلك ومن وحى (المناظر) لابن الهيثم ظهرت كل الاكتشافات العلمية المتصلة بالبصريات ابتداء من الانجليزى « باكون » حتى الالمانى « فيتللو » ..

اما ليوناردو دافنشى .. الايطالى مختـرع آلة التصـوير المعتم .. مخترع المضخة والمخرط .. فقد تأثر بعلوم ابن الهيثم واقتبس منهـا .. وأوحت اليـه كتب ابن الهيثم بالافـكار التى اثارت دهشـة اوروبا فى ذلك الوقت .. لـكنه لم يعتـرف بذلك .

وعنـدما قام (يوهانس كيلر) فى المانيـا فى القـرن السادس عشر ببحث القوانين التى تمكن جليليو بواسـطتها من رؤية نجوم وكواكب مجهولة فى السماء اكتشف ان اختراعات ابن الهيثم هى التى الهمته طريق الوصول الى اكتشافاته العظمى .

كانت اكتشـافات ابن الهيثم ملهمة لـكل علمـاء القـرن العشرين ..

وحتى اليـوم لا تزال المسألة الفيزيائية الرياضية الصعبة والتى قام بحلها ابن الهيثم بواسطة معادلة من الدرجة الرابعة .. دليلا على انه كان المعلم لأساطين الحضارة الاوروبية ولا تزال هذه المسألة تنسب اليه وتسمى باسمه (المسألة الهيثمية) .

وابن الهيثم من اتبـاع مـذهب الواقعيـة فى البحث اى التفكير العلمى القائم على البرهان والتجربة ولا يهتم بالمنهـج العلمى القائم على الخيال .. مثل الكثيرين من علماء الاغريق .

واتباع مذهب الواقعية يقولون ان العالم الطبيعى موجود فى ذاته وجودا عينيا خارج الذهن والعقل وان الحواس هى ادوات ادراكه ..

من اجل هذا اكتشف ابن الهيثم ان الضـوء هو العـامل الخارجي الذى يحدث الاحساس البصرى .. وعلى اساس ذلك قام بتجـاربه فى البصريات التى اوصلت هـذا العلم .. من التصوير المعتم .. الى التصوير من الاقمار الصناعية ..

وكان لا يستريح الى سماع فلسـفة (اللا ادرية) اى ان تقول لا أدرى .. انها عقيدة تهدم وتبطل العلم .. بل تنفيه .. لا تنشىء ولا تبنى .. فكيف لا تدرى وانت منقطـع للعـلم والبحث العلمى ؟

ويقول عنه الفارسى فى كتابه (التنقيح) ..

(ان ابن الهيثم اجل من ان ينظر اليه من فوق ولله العجب .. من مدقق بارز فى ميدان التعاليم وسابق فرسان فنونها .. جزاه الله فى دار البقاء عن الطلبة حير الجزاء) .

اما الغرور .. فقد يصيب العلماء فى حالات كثيرة .. ووعاء العلم يتسع مهما ملأته بعلومك .. فلماذا الغرور ؟

ابن الهيثم يتواضع ويتواضع .. كلما ازداد علما .. لأن الوعاء يتسع والبحر لا نهاية له .. ونراه يلتزم بروح الحضـارة الاسلامية فى سلوكه العلمى .. اى بالامانة والصدق .. وهو يكره أن ينسب أحد فضل غيره لنفسه .

اليست المعرفة ترشد الى الايمان .. ولو نطق بالعلم كافر ..

ابن الهيثم يقول ..

اذا وجدت كلاما حسنا لغيرك .. فلا تنسبه الى نفسك واكتف باستفادتك منه .. فالولد يلحق بأبيه والكلام بصاحبه .. وان نسبت الكلام الحسن الى نفسك فينسب غيرك نقائصه ورذائله اليك) .

وهو كان يتحدث دائما عن فضل من سبقوه من العلماء .. سواء كانوا من الاغريق أو الفرس او من علماء الهند فينسب اليهم الفضل دائما .. وفى كتابة (المخروطات) نراه يقول فى امانة وتواضع ان ابولونيوس قد سبقه الى ذلك وكان يسميه ابولونيوس الفاضل وكان يذكر أسماء هؤلاء العلماء فى كل بحث يقوم به اما اذا استخدم بحثا لهم ذكر صاحب البحث فى كتابه مثل وصفه لتركيب العين ..

وجميع ما ذكرناه من طبقات العين وتركيبها خطأ بينه وشرحه أصحاب التشريح فى كتب التشريح ..

واذا قرا رايا علميا يرى انه خطأ من آراء القدماء تلطف وقال فان من المظنون من رايهم ، وان اراد ان يبطل لهم رايا علميا او نظرية سائدة يبدأ بشرح وجهة نظرهم والاسباب التى دعتهم الى القول بذلك بل يبحث لهم عن حجج يعتذر لهم بها عن اخطائهم .. كما فعل فى شرح نظريته الجديدة عن كيفية الابصار .. التى ابطل بها نظرية الاغريق ..

ويعبر عن تواضعه بعد تدوين اكتشافه العلمى بقوله ..
فلعلنا ننتهى بهذا الطريق الى الحق الذى به يثلج الصدر ونصل بالتدريج والتلطف الى الغاية التى عندها يقع اليقين

وتظفر مع النقد والتحفظ بالحقيقة التى يزول معها الخلاف .. وتنحسم بها مواد الشبهات .

وقد استطاع ابن الهيثم ـ لاول مرة فى التاريخ ـ أن يصنع نظارة للقراءة حبا منه فى نفع الناس بالعلم ..

لقد ظل فى كل اكتشافاته العلمية مرآة لكل العصور .. فيما بعد !

عصر الاضطراب السياسى ..

لقد عاش ابن الهيثم فى اواخر حكم الدولة العباسية وكانت السلطة قد اصبحت فى قبضة فئة متعجرفة مترفة غارقة فى الفساد واهتزت البلاد الاسلامية بتيارات فكرية متصادمة نتيجة انحلال السلطة وعزلتها عن الشعب . وهنا برز ما نسميهم اليوم بالرجعيين واصبحوا هم سدنة للسلطة العباسية لهم المستفيدون من اغلالها الجديدة على العقل الاسلامى .. ومن مصلحة هؤلاء تجميد الفكر والحركة العلمية حتى تتعاظم سلطتهم ومكاسبهم ونفوذهم .

ثم تدهورت احوال السلطة وسيطر عليها الانحلال العقلى الى حد احراق الكتب العلمية والفلسفية فى ميدان بغداد ..

وها هو الرجل الذى كلف من قبل السلطة باحراق خزانة كتب هائلة فى بيت فيلسوف يزعق بملء صوته فى ميدان بغداد ليشهر بكتب العلم والمعرفة .. وهذا الرجل كان اسمه ! ابن المارستانية أى ابن المجنونة بلغتنا الدارجة اليوم ..

وقف ابن المجنونة يقذف بالكتب وسط النيران وهو يشهر بها والناس فى ذهول فهذه الميادين فى بغداد والبصرة والقاهرة .. وغيرها شهدت أعظم بعث حضارى وأسرع بعث حضارى فى التاريخ .. وها هو زمان قد جاء تتحول فيه السلطة فى الدولة الاسلامية الى عدو للعلم والحضارة ..

كان ابن المجنونة يصرخ وهو يمسك فى يده بكتاب « الفلك » لابن الهيثم ويشير الى رسومات الافلاك بيده ويصرخ :

وهذه الداهية الدهياء والنازلة الصماء والمصيبة العمياء .

ثم القى بالكتاب فى النار وسط مئـات الكتب لعلمـاء الامة العظام .

كان ابن الهيثم قد ذاع صيته فى كل مكان من البلاد الاسلامية وانتشرت نظرياته بين المتخصصين .. رغم أن العصر كان مضطربا ولو كان ابن الهيثم قد ظهر قبل ذلك لكانت كتبه قد اصبحت فى كل بيت من بيوت المثقفين المسلمين ..

وكان ابن الهيثم قد دون كتابا عن هندسة العمران اسمه (علم عقود الابنية) ويقول عنه :

(وهو العلم الذى يتعرف منه احوال اوضاع الابنية وكيفية شق الانهار .. وتنقية القنوات وسد الثغرات وتنضيد المساكن ومنفعته عظيمة فى عمارة المدن والقلاع والمنازل وفى الفلاحة)

اما علم المساحة الذى صنف فيه كتابا آخر فيقول عنه الانصارى (علم يتعلم منه مقادير الخطوط والسطوح والاجسام .. ومنفعتـه جليـلة فى أمر الخـراج وقسمة الارض وتقدير المساكن وغيرها) .

ومن هنـا بدات رحلة ابن الهيثم الى مصر .. التى قضى بها ثمانية عشر عاما .

اما كيف بدات رحلته الى مصر .. فيقول ابن القفطى :

(ان سبب استدعاء الحاكم بأمر الله لابن الهيثم من البصرة .. هو ما سمعه عنه من قول ابن الهيثم . لو كنت بمصر لعملت فى نيلها عملا يحصل به النفع فى كل حالة من حالاته ، زيادة او نقصانا . فقد بلغنى أنه ينحـدر من موضـع عال وهو فى طرف

الاقليم المصرى .. واشتاق الحاكم بامر الله الفاطمى لرؤية ابن الهيثم كما يقول القفطى . واحتفل لفكره ابن الهيثم للتحكم فى مياه النيل عند اسوان احتفالا شديدا ورغم أن الحاكم بأمر الله الفاطمى .. كان متهوسا وشاذا .. الا انه كان يحب العلماء وهو الذى انشأ دار الحكمة اى دار العلوم التعليمية فى القاهرة .

ويروى المؤرخون ان العلماء كانوا يهربون اليه .. لانه كان يحميهم ويغدق عليهم سخاء .. رغم انه كان شبه مجنون .

وقد اسرع الحاكم بامر الله باستدعاء ابن الهيثم من البصرة وبعث اليه بالهدايا والاموال .. وبرجاء أن يحضر الى مصر .. وانه مشتاق اليه !

وجاء ابن الهيثم الى مصر .. واستقبله الحاكم بامر الله عند حدود القاهرة ـ استقبالا حافلا .. وطلب منه الحاكم ان يستريح من عناء السفر هو ومن معه .

وكان معه جماعة من المساعدين فى شتى العلوم العمرانية .. جاء بهم معه من البصرة

كما لو كان مستعدا لبناء السد العالى فى اسوان .

غير انه قام ببحث شاق على طول نهر النيل من القاهرة الى اسوان .. واكتشف ان الحقائق العلمية التى وصلته وهو فى البصرة عن نيل مصر ليست حقائق على الاطلاق وانه لاينحدر من موقع عال كما كان يظن وكما رتب مشروعه الهندسى فى راسه .. من اجل هذا حدثت المأساة .

غضب الحاكم بأمر الله غضبا عارما لا رجعة فيه كعادته حين يغضب وامر بان يلحق ابن الهيثم بوظيفة صغيرة من وظائف الكتبة فى احد الدواوين .. ولم يكن هذا العمل يليق بالعلماء من امثال ابن الهيثم .. فهو لا يطيق اعمال الادارة .. !

وشعر ابن الهيثم بانه سيموت كمدا فى وظيفته التى لا يحبها ووسط مناخ لم يجرب الحياة فى مثله من قبل !

مناخ الموظفين والثرثرة طوال النهار فيما لا يفيد !.

وهنا ادعى ابن الهيثم الجنون فظل يصرخ ويبكى ويضحك طوال أيام عديدة ..

وأمر الحاكم بامر الله بوضعه فى السجن مدى الحياة .. غير ان الحاكم بأمر الله لم تطل به الحياة .. فقد خرج من قصره بتنزه فوق حصانه ولم يعد أبدا بعد ذلك ..

ثم خرج ابن الهيثم من سجنه فرحا بحريته .. وعاش فى غرفة متواضعة بجوار الجامع الازهر .. ثمانية عشر عاما .. وضع خلالها اسس علم البصريات التجريبى .

ويسميه البيهقى « الحكيم بطليموس الثانى » .

وابن الهيثم هو العبقرى الذى نادى دائما بالعلم والايمان .

بحر العلوم من حولنا

قصة ابن سينا صاحب انجيل الطب

والبحر فيه اكثر من ملاح .. الف ملاح او الف الف ملاح .. وربما عددهم لا يعرفه احد .. ومع ذلك فبينهم فى كل عصر .. ملاح لا يضــل به الشراع وله فى بحر العلم راية عاليــة وهو الربان ..

والملاح فى بحر العلم يوزن مداده بدم الشهداء .

ان هــذا البحر ليست له نهــاية .. فاين يذهب الملاح بشراعه ؟

كل منهم ينشد شاطىء الحضارة يرســو بشراعه وســط انوارها وقد حقق غاية عمره .. وغــاية عمر الملاح فى بحــر العلم .. هى ان يخفف عن البشرية اثقالها .. وما اشد اثقال البشر .. حينما تغيب عنهم شمس المعرفة !

وها هو الملاح العظيم .. قد ظهر بشراعه عنــد الأفق والبحر وراءه مثــل هــذا الكون ليست له نهاية .. وكل ملاح فى بحر العلم ليس الا نقطة فى هذا البحر اللانهائى .. تماما مثل اى كوكب او نجم فى الســماء ليس الا راس دبوس وسط بحــر المجرات والسدم والشموس .. فملايين والاف الملايين من حوله

.. لا تعد ولا تحصى .. لكن كل منها يضيء السماء .. وهى زينة !

لترقب اذن شراع ملاحنا العظيم القادم من بحر العلم .. ها هو اسمه قد نقش على الشراع بحروف من نور ساطع . انه الشيخ الرئيس ابى على الحسين بن عبد الله بن الحسين بن على بن سينا . استاذ كل العصور كما اطلق عليه المؤرخون الاوربيون والشيخ الرئيس كما اطلق عليه المسلمون ..

وهى قصة تثير العجب بعد الدهشة .

العجب لان بطلها كان الربان العظيم لكل اللاحين فى بحر العلم منذ الف عام وحتى القرن السابع عشر لم لا يزال استاذ كل العصور ..

اما الدهشة فلأنه جمع بين العلمين ، علم الأبدان ، اى العلوم البشرية الحضارية .. وعلم الأديان .. والعلم علمان .. كما قال خاتم الانبياء ..

وهو لم يجمع بينهما كمثقف من قافلة المثقفين المسلمين بل كقائد مهاب له شراع مضيء وسط بحر العلم ودور فعال مؤثر فى اقامة الحضارة البشرية فى هذا القرن العشرين ..

يقول « و . ج بيرى » فى كتابه « نمو الحضارة » :

« الحضارة هى جماع نشاط الانسان والفنون والحرف المنوعة التى ابتكرها ووسائل الاتصال بينه وبين غيره وكل ما قام به الانسان من اعمال ، ترفع من شأنه وحياته وقيمتها » .

والحضارة لا تقوم الا بحركة العقل البشرى وطموحه ..

حالة العقل التام :

وكان ابن سينا المبشر بالحضارة .. لأنه والها المؤمن ..

وكان له فضل فى رفع شان الانسان وقيم البشرية لانه لم يتعصب لجنس .. الا الانسان حيثما كان ..

وسر معجزة ابن سينا هى احتفاله الهائل بالعقل البشرى .. فهو يؤمن بالعقل .. كحد فاصل بين كل الكائنات وبين الانسان ، وهو يقول :

« ليس للانسان ميزه على الكائنات كلها .. الا قابليته الصالحة للحصول على العقل » .

والعقل درجات فى راى ابن سينا ..

« اولها العقل الهيولانى .. اى العقل بالقوة لا بالفعل .. كحالة الطفل الذى لم يباشر تعلم الكتابة لكن لديه الاستعداد لها بالقوه .. ثم تاتى بعد ذلك مرحلة العقل بالملكة .. كحالة الطفل الذى تعلم مبادىء الكتابة وسلك بها سبيل النمو .. المؤدى الى الامكان الكامل وهذا العقل الذى بلغ من التدريب نصف الطريق يبعث الامل وان لم يكن بعد قد صار علما حقيقيا .. وتاتى بعد ذلك المرحلة الثالثة وهى ان تصل قوة الكتابة لدى ذلك الانسان الى حد الكمال وتلك درجة العقل الكامل السالك سبيل العلم والبرهان .. فاذا صارت الكتابة عملا دائما للشخص وملكة باقية يرجع اليها حينما يريد . فهذه حالة العقل التام » .

ثم نراه يحاول مستبسلا وفى اصرار التوفيق بين الفلسفة العقلية والعقيدة الدينية .. لذلك قام الصدام التاريخى المعروف بينه وبين الامام الغزالى ..

عصر ابن سينا ..

كيف بدات رحلة الملاح العظيم فى بحر العلم ..

وكيف اصبح هو الربان وسط البحر فى زمانه وبعد زمانه ؟؟ وهو الذى ذكر اسمه فى مراجع العلوم اكثر من ثلاثة



آلاف مرة بينما ذكر اسم جالينوس الف مرة وذكر اسم ابوقراط مائة واربعين مرة .

ما هو السبب ؟

السبب أن كتبه العلمية واهمها « القانون » و « الشفاء » كانت اهم المراجع العلمية الثابتة والتى اعتمدت عليها اوروبا فى سعيها وراء الحضارة فى بدء عصر النهضة بعد الحروب الصليبية ..

وقد ظهر ابن سينا فى ازهى عصور البشرية .. عصر الحضارة الاسلامية .. وهو عصر المعجزة التى حيرت الكثيرين من المستشرقين زمانا طويلا .. حتى اعترفوا فى النهاية ان ذلك العصر هو الذى جعل شمس الحضارة تشرق على أوربا .

ولا يوجد دليل على هذا القول المنقول عن المستشرقة الالمانية « هونكة » أقوى من كلمة الدكتور « أوسلر » المؤرخ العلمى المشهور عن كتاب القانون لابى سينا .

« لقد ظل كتاب القانون لابن سينا انجيلا للطب بلا منازع لفترة طويلة من الزمن أكثر من أى كتاب آخر فى العلوم .. » .

وعصر ابن سينا فى الدولة الاسلامية .. هو عصر الاكتشافات العلمية وليس هو عصر النقل عن الحضارات القديمة .. وبالذات الحضارة اليونانية كما ادعى المستشرقون المغرضون الذين تعصبوا ضد الحضارة الاسلامية بعد هزيمة اوربا فى الحروب الصليبية . ونرى ذلك فى اقوال أصحاب الموسوعات العلمية المشهورة ومن بينهم « جورج سارتون » الذى قال فى موسوعته العلمية :

« يقول الاوروبيون ان العرب والمسلمين نقلوا التراث العلمى القديم دون ان يضيفوا اليه شيئا وهذا الراى خطا اذ لو

لم ينقل المسلمون الينا كنوز الحكمة الاغريقية وما زادوه عليها من عندهم من اضافات هامة .. لتوقفت المدنية عن التقدم مدة قرون » .

الأمة حبلى بالعباقرة

كانت الامة الاسلامية قد حولت مجرى التاريخ واصبحت اللغة العربية هى لغة الحضارة .. وفى ظل الحضارة تصبح الامة حبلى بالعباقرة ..

كان ذلك فى عـام ٣٨٠ هجرية حين ولـد ابن سـينا فى آسيا الوسطى .. وهو من رعايا الدولة السامانية .

وقد ظل الافغان والاتراك والفرس والعرب يتفاخرون بان ابن سينا منهم . والحقيقة ان ابن سينا ليس عربيا ولا عجميا ، بل هو انسـان مسلم ينتمى للحضارة الاسلامية . والبرهان الحاسم انه وضع كل مؤلفاته باللغة العربية وحفظ القرآن وكتب الأدب وهو لم يتجاوز العاشرة من عمره ..

واذا كانت هناك مؤلفات لابن سينا باللغة الفارسـية .. فهى قليلة جدا ، ونادرة .

وفى منـاخ اسـلامى مزدهر نشـأ ابن سـينا وابوه كان من رجال التصوف الاسلامى ومن اتباع المتصوفين المصريين فى ذلك الوقت والمصريون كانوا حينذاك يتبعون جماعة الاسماعيلية .. لنستمع الى العبقرى المسـلم يروى لنا بنفسـه قصته التى املاها على تلميذه ومؤرخ سـيرته « ابو عبيـد عبد الواحـد الجوزجانى » الذى ظل يرافق ابن سينا طوال ربع قـرن من الزمان ..

يقول ابن سينا عن حياته :

« كان ابى ممن اجاب داعى المصريين ويعد من الاسماعيلية وعندما انتقل ابى الى بخارى فى ايام نوح بن منصور جاء الى

بمعلم القرآن ومعلم الادب واكملت العشر من العمر . وقد اتيت على القرآن وعلى كثير من الأدب حتى كان يقضى منى العجب ثم اخذ ابى يوجهنى الى رجل كان يبيع البقل ويقوم بحساب الهند حتى اتعلم منه ثم جاء الى بخارى ابو عبـــد الله الفاتلى وكان يدعى « المتفلسف » وانزله ابى دارنا رجاء تعلمى منه وقبـل قدومه كنت اشتغل بالفقه والتردد فيه الى اسماعيل الزاهد .. وكنت من اجود السالكين . وتعجب منى الفاتلى كل العجب وحذر والدى من شغلى بغير العلم وكانت أى مسألة قالها لى اتصورها خيرا منه حتى قرأت ظواهر المنطق عليه .. واما دقائق المنطق فلم يكن عنده منها خبرة ثم اخذت اقرأ الكتب على نفسى واطالع الشروح حتى احكمت علم المنطق وكذلك كتاب اقليدس واشتغلت بالتحصيل من الـكتب من النصوص والشروح من الطبيعى والالهى .. وصارت ابواب العلم تنفتح على ثم رغبت فى علم الطب وصرت اقرأ الكتب المصنفة فيه .. وعلم الطب ليس من العلوم الصعبة لذلك برزت فيه فى اقل مدة حتى بدأ فضلاء الاطباء يقرأون على علم الطب وتعهدت المرضى فانفتح على من ابواب المعالجات المقتبسة من التجربة مالا يوصف .. وانا مع ذلك اختلف الى الفقه واناظر فيه وانا فى هذا الوقت من ابناء ست عشرة سنة » '

الموسيقار الطبيب المهندس

وفى الثامنة عشرة كان الملاح العظيم قد اجاد واكمل علوم الطب والهندسة والفلك والصيدلة والموسيقى .. زيادة على المنطق والفقه .. وعلوم التصوف والاشتغال بالدين . وهو لم ينعزل عن المسجد فنراه وهو يروى قصة حياته ، يتحدث عن دور المسجد فى افساح الطريق أمام العلم .. فكلما واجهت العبقرى المصاعب فى الرياضيات أو فى اى فرع من فروع العلم .. كان يهرع الى المسجد .. ويصلى ثم يدعو الله أن يفتح عليه فيعود الى داره وينام .. ويالها من معجزة حين كان يرى الحلول لمشاكل العلم تترى على رأسه وهو نائم !

ولا ندرى هــل كانت صلته المستمرة بالعقيدة الدينية هى السبب فى هذه المعجزة العلمية .

يقال ان ابن سينا كان من الاماميه الاثنى عشريه ٠٠ اى قطب ربانى من اقطاب التصوف .. واهل الكشف كمـا جاء فى كتاب « توفيق التطبيق فى اثبات ان الشيخ الرئيس من الامامية الاثنى عشريه » ومؤلف الكتاب هو على بن فضل الجيلانى وحققه الدكتور محمد مصطفى حلمى استاذ الفلسفة الاسلامية والتصوف بكلية الآداب .

فليس من بين العلماء فى كل عصور الحضارات من استطاع ان يجمع بين علوم الطب والكيمياء والصيدلة والفلك والرياضيات والمنطق والفقه والموسيقى ٠٠ ثم هو أيضـا شاعر ٠٠ ثم هـو عالم فلسفة .. كابن سينا .

ابن سينا والشيعة ..

ولعل مما يفيد دراسة المناخ العقائدى لعصر ابن سينا ٠٠ لـكى نعرف سر معجزته وفى اى بيئة فكرية استطاع ابن سينا الحصول على هذا العقل المعجزة ؟

وقديما قيــل لاعرابى : ما هو العقــل ؟ فقال الاعرابى . هو لب اغتنمته بتجريب اى ان عقل اى انسان هو حصيلة تجربته على مدى سنوات عمره ...

فما هى تجربة ابن سينا العقائدية تلك التجربة التى جعلت منه الشيخ والرئيس قبل أن يكوناستاذ العصور فى العلومالحضارية ؟

يقول البعض فى دراساتهم عن ابن سينا انه كان يعتنق مذهب الائمة المستورين اى رؤساء الدين اصحاب المسئولية الباطنيــة عن الامة المحمدية .. وهو مذهب الامامية الاثنى عشرية اى التابعين للامام على بن أبى طالب .

ومن اصحاب هذا الرأى احد معاصريه من المؤرخين المسلمين وهو على بن فضل الجيلانى الذى صنف كتاب « توفيق التطبيق فى اثبات أن الشيخ الرئيس من الامامية الاثنى عشرية .. »

والمؤلف نفسه من المؤمنين بالامام على .. باب المدينة .. مدينة العلم كما قال عنه الرسول عليه السلام . ويقول المؤلف : انه لا خليفة لرسول الله غير الامام على بن ابى طالب ..

غير ان الأمر لايحتاج الى غموض دينى حين يكثر الجدل حول من هو خليفة رسول الله خاتم الانبياء صلى الله عليه وسلم .. ؟

الثابت بالبرهان أن خاتم الأنبياء قال عن على بن ابى طالب انه ولى كل مؤمن من بعده ، وانه باب مدينة العلم ، وهو وزير الرسول وهو وصيه ..

وكان الناس فى خراسان حيث الدولة السامانية المسلمة .. يعتنقون التشيع للأئمة المستورين .. وينكرون على الخليفة العباسى ولايته لامر المسلمين .. فابناء الامام على بن أبى طالب وسلالته احق بالسلطة ..

وهذا تيار عارم تدفق نحو البلاد الاسلامية كلها بعد مذبحة كربلاء ..

وقد عبرت عن هذا التيار فلسفة اخوان الصفاء : أو رسائل اخوان الصفاء التى ظهرت فى ذلك العصر .. وكانت فلسفة نابضة بمذهب الشيعة .

ووسط هذا المناخ الباطنى عاش ابن سينا طفلا وصبيا ورجلا بل أن اباه كان من رجال التصوف ومن اتباع الاسماعيلية .. هكذا اكتسب ابن سينا عقلا ينبض بالعلم الدينى وبالعلوم البشرية وهكذا تكونت فلسفة ابن سينا .. وموقفه العقائدى .

لنقف لحظة ونحن نلهث بعد ان عجـز المرء عن متابعة رحلة الملاح العظيم وربان الحضارة فى بحر العلم فهى رحلة تحتاج الى مجلدات عظمى لشرح علوم هذا العبقرى وتفاصيل مكتشفاته فى فروع العلم كلها .. ولنتأمل فى الجانب الآخر من عظمة ابن سينا كفيلسوف .. فما هى فلسفته ؟.

كان يؤمن بان الموجودات كلها ـ ما عدا الله ـ ممكنة الوجود ؟ وتكون واجبة الوجود بفعل المبدع الاول فان ممكن الوجود قد يكون واجب الوجود ..

وفى المقالة الخامسة فى الجـزء الخاص بالطبيعيات فى كتاب الشفاء ، نقرا له عن العقل القدسى .. ما هو العقل القدسى ؟

انه العقل الذى يصبح لمن لديه استعداد للحدس ، فاذا اشتد لدى هذا الانسان استعداده للحدس ، يصبح كانه يعرف كل شىء من نفسه ..

وابن سينا فى كتابه « الاشارات والتنبيهات » يتعرض لمقامات العارفين من اهل الباطن .. أو المتصوفين الصادقين ...

فهو يتحدث عن العارف الزاهد العابد .. واولى درجات العارفين هى الارادة . وما هى قدرة العارفين ؟

العارف يستطيع الامساك عن الطعام مـدة طويلة ، ويقـوم باعمال شاقة ويخبر عن الغيب ، ويأتى بخوارق العادات .

وفى هذا يتحدث ابن سينا عن اوصـاف الـكاملين والعـارفين ويسب ابن سينا صفات الكاملين العارفين كلها للامام على بن ابى طالب ... رضى الله عنه .

ويتحدث عن الروح القدسية .. ماهى تلك الروح القدسية ؟

فى رسالته عن القوى الانسانية يقول ابن سينا عن الروح القدسية : « الروح القدسية لاتشغلها جهة تحت عن جهة فوق ، ولا يستغرق الحس الظاهر حسها الباطن والروح القدسية يشغلها شأن عن شأن » .

العقل ... العقل !!

وكان ابن سينا يقول عن على بن ابى طالب ، انه مركز الحكمة وفلك الحقيقة وخزانة العقل .

وفى رسالة المعراج نرى ابن سينا يؤكد امتياز على بن ابى طالب على كل الصحابة فمنزلة على من الصحابة تؤكدها مسيرته المخلصة مع خاتم الانبياء . ويرى ابن سينا أن خاتم الانبياء صلى الله عليه وسلم اختص الامام على بن أبى طالب بكلام لم يوجه لغيره .. مثال ذلك انه عليه السلام قال للامام على : اذا تقرب الناس الى خالقهم بانواع البر تقرب أنت اليه بانواع العقل تسبقهم

وفى مناسبة أخرى يذكرابن‌سينا احاديث الرسول لعلى بن ابى طالب عن العقل وعن قيمة العقل .. أن ادراك المعقول اهم من العبادات وفعل الحسنات .. وكثرة العبادات تأتى فى المرتبة الثانية بعد الادراك العقلى فلا حشمة ولا جاه للانسان اعظم من ادراك المعقول .. وقليل العلم خير من كثير العمل كما قال رسول الاسلام .

ونية المؤمن خير من عمله .. والجنة هى ادراك المعقولات ..

وارتباط فكر ابن سينا بشخص الامام على بن أبى طالب يرجع الى ايمان على بن أبى طالب بالعلم .. فهو باب مدينة العلم كما قال عنه خاتم الرسل .

ونرى ابن سينا يطلق على الامام على لقبا هو : امير العلم فهو الذى قال « قدر الانسان وشرفه لايكون الا بالعلم » ..

والعلم أفضل من العبادة ..

وقال : كل وعاء يضيق بما جعل فيه الا وعاء العلم فانه يتسع ..

الاخلاق والسياسة

وفى كتاب الشفاء نقرأ لابن سينا عن الأخلاق والمعاملات والسياسيات ، ويربط بين السياسات والأخلاق ، ولابد أن يسلك السالك الى الله طريق الاخلاق أولا ثم المعاملات ثانيا فاذا صار كاملا كان عاملا بالسياسات .

وهو يتحدث عن الخليفة .. من هو الخليفة فى الاسلام ؟

لا بد ان يكون افضل من الجميع من كل الرعية ، حتى ينصب خليفة للمسلمين ..

« انه لما لم يصح ان يكون رئيس البهائم واحدا من البهائم .. بل وجب ان يكون افضل البهائم .. ولا يجوز ان يكون رائد الصبيان واحدا من الصبيان بل يجب أن يكون أعقل الصبيان .. كذلك سايس الفساق ليس واحدا من الفساق .. بل اكثرهم فسقا .. وكذلك سايس الدهماء ليس من الدهماء !

ويقول فى فصل آخر من الكتاب عن اثبات النبوة : ان ظهور النبى ضرورة لبقاء النوع الانسانى .

ويرى ابن سينا أن كل انسان فى درجه أعلى فهو حاكم عن الله على الادنى ..

الوزير السجين ..

وابن سينا أصبح وزيرا ثم أوقع به الحساد فاصبح سجينا .. غير انه فى سجنه لا يكف عن طلب العلم . ويقال انه اكمل كتاب

« القانون » وهو وراء الجدران وهو الكتاب الذى اجمع المؤرخون ان ما تضمنه من علوم الطب وغيرها انقذ أوروبا بعد ترجمته من جبروت الكهنوت والشعوذة والدجل .

وقال المؤرخون أن اى طبيب أوروبى فى القرن السابع عشر كان لايستطيع وصف العلاج للمرضى الا اذا راجع كتب ابن سينا والا وجهت اليه تهمة هدم المصلحة العامة للمجتمع .. كما قال العالم الالمانى « اجريا فون ناتسهايم » .

ومات ابن سينا فى الثالثة والخمسين من عمره . ويقول ابن خلكان فى وفيات الاعيان : أن الشيخ ابن سينا قد عرف انه سيموت فقام واعتق عبيده وصلى ووزع الصدقات ثم مات .

تلك قصة ابن سينا وهى لست كل القصة ... بل ان مجلدات كاملة لا تحتمل تفاصيل القصة كلها . فهو فوق انه صاحب انجيل الطب ، مكتشف علم الجيولوجيا (طبقات الارض) ، وهو مكتشف عدوى مرض السل .. واول من قال ان العدوى تنتقل بالماء والأرض .

وحين ترجم جيراردى كريمون كتاب القانون لابن سينا لم يكن يدرى أن هذا الكتاب الذى أصبح باللغة اللاتينية سوف يظل حتى القرن السابع عشر الميلادى هو المرجع الاول فى أوروبا لكل دارس للطب بلا منافس حتى استحق أن يقول عنه الدكتور « أوسلر » ! انه أهم كتاب بين كتب العلم على الاطلاق ..

وابن سينا كان عبقريا لانه رفع سعار العلم والايمان ..

ملك العـــرب

قصـــة جابر بن حيـــان مكتشــف علم الكيميـــاء

« فوحق سيدى انه لغاية العـلم ، ولو شئت لبسطته فيما لا آخر له من الكلام . وهـذه الـكتب يا أخى معجزات سـيدى (يقصد جعفر الصادق) وليس وحقه العظيم ، يظفر بما فيها من العلم الا أخونا . اما من سواه من اخواننا الذين لم ندخر هذا من أجلهم ، ولا صنفناه لهم ، فانما يظفر منها بما ظهر من علومنا فيها ، وصنائعنا التى صنعناها ، واودعناها اياها . وأما غير هؤلاء ، من الاضداد ، والســفلة والارذال ، والســفهاء المظلمى النفوس الاقذار العقول ، فما يزيدهم الله بها الا عمى وضلالة .. وجهـلا وبلادة » .

((جابر بن حيان))

صنعة جابر ..

قال عنه المؤرخون فى اوربا ، وفى غير أوربا ، انه أول كيميائى يستحق لقب كيماوى فى التاريخ ..

بل أن علم الكيمياء ، ينسب الى جابر بن حيان ، فيقال «صنعة جابر » .. فهو مؤسس هذا العلم .. وهو اخطر العلوم البشرية .

ويقول عنه المستشرق الاوربى « كراوس » فى دائرة المعارف:

« نقل عنه كل علماء الكيمياء من بعده . ترجمت كتبه الى اللاتينية . ويوجد كتاب لاتينى لمؤلف عاش فى القرن الثالث عشر الميلادى ، عن جابر بن حيان وعن علوم جابر ، واطلق المؤلف الاوربى على جابر لقب « ملك العرب » !

ثم ينتقل « كراوس » الى شخصية جابر العلميه فيقول :

« يربط جابر بين نظريات العلم الطبيعى وعلم الاديان ويسمى استاذه جعفر الصادق « معدن الحكمة » ويقول جابر انه تعلم كل شىء منه . وليس له فضل ، الا فى تصنيف هذه العلوم وترتيبها .. وله استاذ آخر ذكره هو « حربى الحميرى » وكذلك احد الرهبان » .

النظرية الذرية

ولا مفر من الاستطراد فى نقل راى « كراوس » وتاريخه لجابر ابن حيان ، لأن المؤرخ الاوربى يقف فى وضع المتجاهل بالنسبة للحضارة الاسلامية ، ولفترة طويلة من الزمن بعد الحروب الصليبية وبلغ من تجاهل المؤرخ والعالم الاوربى للحضارة الاسلامية فى ذلك العصر حدا جعل الكثير من علماء أوربا ، ينقل العلوم العربية ويدرسها ثم ينسبها لنفسه متجاهلا تراث البشرية ، وهو بذلك يتجرد من الامانة العلمية ، بعكس العلماء العرب ، الذين نسبوا الى اليونان ما لليونان ، وللفرس ما للفرس وللهند ما للهند .. بل كان احتفالهم بعباقرة الحضارات الثلاث الى ابعد مدى ، فسجلوا لهم الفضل العظيم .. ثم استأنفوا مسيرة الحضارة الاسلامية بعد ذلك .. !

ولم تكن مسيرة ، بل قفزة حضارية اختصرت ثمانمائة عام من الزمن ! يكفى ان نعرف ان رجل الحضارة الاسلامية جابر بن حيان هو صاحب نظرية الاتحاد الكيميائى التى تشبه النظرية الذرية .



التى تحدث عنها العالم الاوربى « دالتن» بعد جابر بألف عام ، والتى تقول ان الاتحاد الكيميائى يكون باتصال ذرات العناصر المتفاعلة بعضها ببعض ، وكان جابر قد اجرى تجربته على الزئبق والكبريت ووصف عملية تحويلهما الى « كبريتور الزئبق » وكان الفيلسوف والحكيم ارسطو اليونانى يقول ان الفلزات نشأت فى باطن الأرض من تفاعل الدخان والقوام المائى ، لكن جابر بن حيان ، بعد دراسته لنظرية ارسطو راى انها لا تفسر الظواهر والمشاهدات التى كان يلاحظها فى تجاربه الكيميائية ، فهو يعتنق مبدأ التجربة العلمية بعكس علماء الأغريق .

وهكذا جاء اعتراض « جابر بن حيان » على رأى ارسطو بعد دراسة وتجربة . وقال جابر ان الفلزات لا تتكون بهذه الصورة ، وأن عنصرين جديدين يتكونان فى باطن الأرض هما الزئبق والكبريت وباتحادهما تتكون الفلزات . وبقيت نظرية جابر مقررة فى دراسة علم الكيمياء فى كل أوربا حتى القرن الثامن عشر .. وكانت هذه النظرية نواة لنظرية جديدة أخرى هى نظـرية « الفلوجستين » القائلة بأن كل المواد القابلة للاحتراق ، والفلزات القابلة للتأكسد ، تتكون من أصول زئبقية وكبريتية وملحية ، ثم كانت اضافة جابر الهامة لكل هذه النظريات وهى علم الميزان .. حيث جعل لـكل الطبائع الأربع ميزانا .. يقول المستشرق الاوربى « كراوس » فى دائرة المعارف عن جابر وميزان جابر :

« درس جابر تراث أرسطو ، وعلوم غيره من الاغريق كما قرأ (فرفريوس) كما درس افلاطون وجالينوس واوقليدس وبطليموس ودرس نظريات أرشيميدس ، وليس فى كتب الحضارة الاسلامية عن الكيمياء كتب مثل كتب جابر ، تكشف عن المعرفة الواسـعة بتصانيف القدماء أو تمتاز بهذه الاحاطة الموسوعية . وهى تشبه فى ذلك رسائل اخوان الصفاء . واساس علم جابر هو ما يطلق عليه اسم (الميزان) ويشمل هذا المصطلح نواحى كثيرة ، والميزان معناه الوزن النوعى ، وميزان جابر بن حيان هو مبدأ التـوحيد العلمى .. » .

عبقرى التوحيد

ان قفزة الحضارة الاسلاميه . كانت اسطورية ، فلم يحدث فى تاريخ الحضارات البشرية ان قامت حضارة متطورة على أساس علمى خلال مائتى عام ، لكن ذلك حدث لحضارتنا .

كيف ؟

ان حضارة أوربا استغرقت الف عام حتى قامت ، فيكون الفرق الزمنى بين حضارتنا وحضارة أوربا هو ثمانمائة عام وهذا اللغز حير جميع من ارخوا للحضارة الاسلامية وجعلهم فى دهشة مستمرة .. وهاهى سيرة جابر بن حيان تكشف عن هذا اللغز .. وهاهو جابر يعتنق مبدأ التوحيد العلمى ويبشر به ، بعد أن جاء مبدأ التوحيد بعد ظهور الاسلام . وهاهو جابر يكتشف اسرار الكيمياء يكتشف حامض الكبرتيك ، وماء الذهب ، وحامض الازوتيك ونترات الفضة ، ثم يضع اسس علم الكيمياء فى كتابه (الموازين) . ومن المثير للدهشة حقا ، ان جابر يمزج فى كتابه هذا بين الكيمياء والتصوف الاسلامى ، فقد كان يعتنق نظرية المادة الحية ، والمعدن فى رأى جابر كائن حى ، له نفس وجسم ، وأن هذا المعدن كان خسيسا ، فتحول على مدى آلاف السنين الى معدن نفيس ، وغاية علم الكيمياء هى الاسراع بهذا التغيير .

وينادى جابر بنظرية التناسل فى المادة ، ويقول بمبدأ الزواج والحمل ، والتعليم فى المادة .. بل بمبدأ الحياة والموت أيضا ، كما يقول المستشرق (كراده فو) فى دائرة المعارف وهو يؤرخ لجابر فيقول :

« لا يقف علم جابر بعد أن توحد على انشاء أسس علم الكيمياء ، بل يتعداه الى علوم الطب وعلم الخواص ، اى علم ما فى الطبيعة ، وعلم التكوين ، اى علم تكوين الأحياء بطرق صناعية ؟ وعلوم الفلك ، وعلوم الرياضيات وعلوم الموسيقى وعلوم الدين ؟ » .

لكن جابر يجرد نفسه من كل عبقرية .

لماذا يجرد هذا العبقرى نفسه ، من اية عبقرية ؟

بل لماذا ينكر انكارا ملحا ، أنه صاحب فضل فى اكتشافاته العلمية التى غيرت وجه الحضارة من بعده .. فعلم الكيمياء هو اخطر العلوم ، التى يشتغل بها العقل البشرى الآن .. وهو علم جابر .

لقد أجمع علماء القرن العشرين من عباقرة أوربا على ان نظرية جابر العلمية هى نظرية صحيحة .. فكم لجابر بن حيان اذن من فضل فى بعث حضارة اوربا .

لسنا هنا فى مقام الفخر .. ولا فى مقام الغرور الحضارى ..

بل ان صاحب هذه السيرة .. هو معلم اجيال العلماء من بعده صفة التواضع .. والانكسار الصوفى .

لكن ما اعظم جابر كفارس لا يشق له غبار فى ميدان العلم ! اية شجاعة غير شجاعة اليقين ، تلك التى جعلت جابر يتصدى لاراء جالينوس ثم لعلماء الاغريق جميعا ، ويخرج من التجربة العلمية منتصرا ، منفردا بنظرية صحيحة تهدم كل نظريات القدماء فى علم الكيمياء .. ومن بينهم علماء اليونان .

لكنه رغم انتصاره العلمى على الاغريق نراه متواضعا متوددا اليهم بالاحترام والتكريم .. ها هو يقول عن العلم والعلماء :

(ان العالم اذا كان منصفا ، فانه ليس ينزل فى اقسام بحثه شيئا الا ذكره واحتج عليه وله ، وأخذ حقه من خصومه ووفاهم حقوقهم ، والا وقع العناد حماقة وجهلا) .

ويرفع جابر شعار الامل ، امام العلماء ، فلا يأس امام التجربة العلمية ، ويستشهد بالآية الكريمة : « ولا تيأسوا من روح الله ، انه لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون » .

وهاهو يحذر تلميذه من اليأس فيقول له :

وقد سمعت بما جاء بهالنبي عليه السلام فى القنوط ، واحذرك ان تصير الى هذه الحال ، فتندم حين لا ينفع الندم ، والله أعلم بأمرك . وحق سيدى (يقصد جعفر الصادق) ان لم تقبل لتكونن مثل رعاع العامة . السفلة الاجناد .. لعنهم الله) .

وهو مؤمن بالحضارات البشرية وبعلماء هذه الحضارات التى سبقت الحضارة الاسلامية .. وهو الذى يرفع راية التوحيد فى العلم . وايمانه بمن سبقوه نابع من عقيـدته الدينية ، تلك التى تنسب الفضل لاصحاب الفضل ولاتنكر الحق .. بل تنادى بطلب العلم ولو كان العلم فى الصين .. من المهد الى اللحد .

يقول جابر انه لانجاح لأى علم الا اذا كان مسبوقا بعلم .

اذن الحضارة لا تقوم الا اذا سبقتهاحضارة اخرى .. وهكذا : يدور البشر فى فلك الحضارات ..مصر .. ثم اليونان ، ثم الفرس والرومان .. ثم الحضارة الاسلامية .. ثم كمـــا نرى الآن .. حضارة هذا العصر .. وهكذا !

ويقول جابر عن الجهاد العلمى لبعث الحضارة ؟

« أتعب تعبا واحدا فى البداية ، ثم اجمـع وانظر واعلم ، ثم اعمل .. ثم تصل الى ما تريد » !

وهو لا يميل الى تلقين العلم لمن لا يقبـل التعليم بل يرى ان العلم لا يحمله الانسان الا بقدر طاقته .. والا احرقه .

ولولا اننى امرت ان اعطى الناس بقدر استحقاقهم ، لكشفت من نور الحكمة ما يكون معه الشفاء الاقصى ، ولـكنى امرت بذلك

لمافيه من الحكمة لان العلم ياخى لايحمله الانسان الاعلى قدر طاقته والا احرقه . كما لا يقدر الاناء والحيوان ، ان يحمل الا بقدر طاقته ..

وكان جابر بن حيان .. يعتنق فكرة أن الوحى مستمر بعد رسول الاسلام لكن فى الخفاء .. ويأتى هذا الوحى بالعلوم ، الى الأئمة ومنهم الى الرعية .

معالم اوروبا الحديثة

كيف كانت الكيمياء قبل جابر ، لم تكن علما كما نعرفه الآن . بل كانت صناعة ومهارة أيام الاغريق وقبلهم ايام الفراعنة . وكانت من بين ما اشتغل به علماء الاسكندرية فى جامعتها القديمة ، بحثا عن حجر الفلاسفة . اى عن الذهب !

وكانت قاصرة على التحنيط والتعدين والصباغة وصناعة الزجاج والنسيج . ثم جاء هذا الربان العظيم ، من ربابنة الحضارة الاسلامية ، ليجعل من الكيمياء علما يبشر فى هذا القرن العشرين بمعجزات مذهلة .. قدتغير منأساليب الاحياء والجماد فىالتطور .

وجابر كان يشفق كثيرا على العقل البشرى ، من المفاجآت العلمية .. التى قد تبدو كمعجزة لا يحتمل فهمها العقل غير المدرب .. اى الذى لم يمارس التجربة العلمية ..

لذلك كان يدعو الى التكتم فىَ العلمحتى تأتى الظروف المناسبة لاظهاره . وقد ظهرت علوم جابر بن حيان بالفعل فى بداية عصر النهضة الاوربية لتجعلمنعلم الكيمياء طوال الف عامخاضعا لنظرية جابر .

كانت اكتشافاته واعماله ، هى العلامة ، على طريق البحث فى اسرار هذا العلم الخفى ، كما كان يسمى فى الزمان القديم ..

وهاهم أعظم علماء أوربا من أمثال (كوب وهولميارد الانجليزى وسارتون وبرتوليه) كل هؤلاء المشاهير وغيرهم عشرات يتسابقون لدراسة اكتشافات جابر ونظرياته ٠٠ ويخرج سارتون بدراسة مطولة عن الحضارة الاسلامية من خلال دراسته لمسيرة جابر بن حيان العلمية ٠٠ وانتصاراته الكبرى ٠٠ وقد عرفت أوربا قيمة جابر من خلال الاكتشافات الاخيرة .

معلم جابر !

وجابر بن حيان ولد فى خراسان وعاش فى العراق ٠٠ وفى الكوفة بالذات .

ولد عام ١٢٠ هجرية فى عصر الدولة العباسية وعاصر الرشيد والبرامكة لكنه كان يتبع مذهب الامام جعفر الصادق أستاذه فى علم الكيمياء .

ومن هو جعفر الصادق الذى يتحدث عنه دائما فى كتبه بقوله « سيدى » ؟ هو ابو عبد الله جعفر بن محمد الباقر بن على زين العابدين ابن الحسين وهو من أحفاد أمير المؤمنين على بن أبى طالب ..

وهو فى مذهب أهل الباطن ، الامام السادس بين الائمة الاثنى عشر ٠٠ أى الذين لكل منهم الرئاسة الدينية على الأمة المحمدية ٠٠

وكان من علماء الكيمياء ، وله كتاب فى الف صفحة كما تقول دائرة المعارف يشرح فيه هذا العلم . ويتضمن الكتاب خمسمائة رسالة ٠٠ فى العلم .

واشتغال احداحفاد رسول الاسلام بعلم الكيمياء ، جعل لهذا العلم الخطير أهمية بين المثقفين المسلمين ، فى ذلك العصر ، فاقبل عليه الناس ، لأن أحد سادات البيت الهاشمى المبارك ، يشتغل بالكيمياء ٠٠ ويبحث فى اسرار هذا العلم .

ولا شك ان اشتغال حفيد رسول الله بالعلوم الطبيعية جعل لهذه العلوم أهمية خاصة بين المسلمين فى ذلك العصر ولهذا السبب اصبحت العلوم والبحث العلمى والكشف عن اسرار الطبيعة هى أمل كل مثقف مسلم من بعد جعفر الصادق رضى الله عنه ٠

أليس هو حفيد اعظم داعية للعلم فى التاريخ الاسلامى ٠٠ فارس الفرسان على بن أبى طالب ٠

من هنا بدأ الزحف نحو المعرفة والحضارة البشرية ٠٠ ومن هنا بدأ العمل الهائل فى دراسة تاريخ الحضـــارات وعلوم اليـــونان والفرس والهند ٠

وكل حركة حضـــارية لابد أن تغلف نفسها بعقيـــدة ٠ وقد اكتست حركة الحضارة الاسلامية بالعقيدة المحمـدية ، وحققت بذلك قفزتها الاســطورية التى سبقت مســيرة اوربا الحضارية بثمانمائة عام .. اى اختصرت من عمر الأمة هذا الزمن الهائل ٠٠ لأن العلم امتزج بالدين وفارس هذا الميدان هو جابر بن حيان ٠

الفلسفة والادراك الصوفى

ان علم الدين وعلوم الدنيا ، كلاهما يتجه الى طريق واحد ٠٠ هو الفائدة لكل البشر ٠٠ علوم الدنيا تفيـــد الانسان فى اقامتــه المحدودة على سطح هذا الكوكب ، وعلوم الدين تفيد الانسان فى اقامته الدائمة الخالدة فى العالم الآخر ..

من أجل هـــذا يرى جابر بن حيـــان ، ان مزج العلمين معا يجعل الانسان متوحدا فى مسيرته الكونية .. هنا وفى الآخرة .. وهى نظرية جعلت من ابحاثه العلمية اخطر من كل الابحاث التى تنسب لعلماء اليونان ، وغير اليونان .. بل ان هـــذه الابحاث والنظريات التى جاء بها جابر بن حيان ، جعلت علم الكيمياء ينسب

اليه وحده لأنه صاحب هذه الصنعة بلا منافس ، سواء فى التاريخ اليونانى أو الفارسى أو الرومانى .

اذن هو قد حقق الهدف من مزج العلم بالدين ، وما أعظم الهدف .. أليس هو الاكتشاف العلمى ، ومعرفة اسرار الطبيعة المجهولة .

أى الكشف عن الحقيقة .. وقد عرف جابر الحقيقة على أساس نظريته الجديدة .. مزج علوم الدنيا بعلوم الدين ..

والفضل فى هذا الاتجاه لعبقرى الكيمياء يرجع لجعفر الصادق الامام السادس بين الائمة المستورين ..

ان العلة الأولى هى العقل كما يقول جابر .. لولاه لما كان اى شىء .. لكن ما هو العقل ؟

يقول جابر : العقل هو العلم ..

وكان جابر بن حيان فيلسوفا .. رغم أنه عالم بشيد علمه على مشاهدات وتجارب وكان معجبا بفلسفة سقراط ويقول عنه انه أبو الفلاسفة ، وانه ـ أى سقراط ـ مثال للانسان المعتدل . والانسان المعتدل فى رأى جابر هو الانسان الذى يكتشف الاشياء بموهبته ويقع له العلم بالبديهة للوهلة الاولى ..

غير أن جابر بن حيان له رأى بالنسبة للتفكير الفلسفى القائم على البرهان والقياس، ويعتقد أن الادراك الصوفى أهم . وله تجربته الكبرى مع امام المتصوفة فى عصره فهو تلميذ ذلك الامام .

دعاء جابر

ولجابر بن حيان دعاء صوفى مشهور لقنه اياه أستاذه الامام جعفر الصادق ويقول جابر ان من يقرأ كتبه ولا يعمل بهذا الدعاء لن تقع له الفائدة العلمية .

وعندى انه لا يتم لاحد ممن قرا كتبى خاصة الا به ، ان ازال صورة الشيطان عن قلبه ، وترك اللجاج واستعمل محض الاسلام والدين والنية الجميلة . واما مادام الشيطان يصب به فليس لنفعة شيء . وذلك أن اللجاج ليس هو الشيطان وحده ، انما هو من فساد النية .. فاتق الله ياهذا في نفسك

ويقول جابر ان كل ما عرفه من علم مصدره الرسول عليه السلام ثم على بن ابى طالب ثم جعفر الصادق .. يقول

تأخذ من كتبى علم النبى وعلى .. وسيدى ومابينهم من الاولاد ـ آل البيت ـ منقولا نقلا مما كان وهو كائن ومايكون من بعد .. الى ان تقوم الساعة . وكان ابو بكر الرازى ، اعظم اطباء الحضارة الاسلامية ، يذكر جابرا فى كتبه فيقول قال استاذنا ابو موسى جابر بن حيان .

وهكذا نعرف ان هذا العبقرى كان أستاذا لاجيال الاساتذة فى العلوم .. فهو كان ايضا يشتغل بالطب الى جانب الكيمياء ..

الهارب من السلطة

وجابر بن حيان يؤمن بان العلم فى قبضة الجهال ومن لا عقيدة له ولا ايمان يمكن ان يؤدى الى خراب العالم .

لابد اذن أن يكون العلم بين أيدى الذين يؤمنون بالخير ورفاهية البشر وليس غيرهم .. وكان جابر يعيش فى عصر هارون الرشيد .. اى فى عصر الترف والانحلال . لنستمع اليه يقول لتلميذ من تلاميذه ، وقد اشتدت عليه المحنة بعد هربه من السلطان : «ولتكن من اهل هذا العلم على حذر ، ممن يأخذه منك ، واعلم أن من المفترض علينا كتمان هذا العلم ، وتحريم اذاعته لغير المستحق ، والا نكتمه من اهله ، لان وضع الامور فى مكانها من الامور الواجبة ، ولان فى اذاعته خراب العالم ، ولا سيما وطلبة هذا الزمان من اجهل

الحيوان ، وقد اجتمعوا على المحـــال فانهم ما بين سوقة وباعة واصحاب دهاء وشعبذة ، لا يدرون ما يقولون ، فأخذوايتذاكرون الفقر ، ويذكرون ان الكيمياء غناء الدهر » .

أشارة الى طمع الناس فى حجر الفلاسفة الذى يحول المعادن الى ذهب فالعلم ليست غايته الغنى .. بل غايته العدل ..

وفى فهرست ابن النديم نقرأ قائمة بكتب جابر بن حيـان .. تلك الكتب التى قامت عليها علوم الكيمياء فيما بعد فى أوربا وفى كل قارات الدنيا .

اولا : علم الاكسير العظيم ، وكتاب الكمال ونار الحجر وكتاب البيان وكتاب النور ، وكتاب التـدابير : اى التجارب ، وكتـاب (الخواص الكبير) وهو من أخطر كتبه وكتاب الاركان وكتـاب الاسرار وكتاب القمر وكتاب الشمس وهما عن الذهب والفضة ، وكتاب الموازين وكتاب التركيب وكتاب الارض وكتاب اخراج مافى القوة الى الفعل وكتاب الضمير وكتاب كشف الاسرار وكتاب الرحمة .. وغيرها من الكتب التى وصل عددها الى اكثر من سبعين كتابا معظمها محفوظ فى متاحف لندن وباريس وعواصم أوربا .. وفى جامعة اكسفورد ..

كان العلماء فى قديم الزمان ، قبل جابر والحضارة الاسـلامية يقولون ان علم الكيمياء من العلوم المستحيلة .

بل ان ارسطو نفسه يرى أن تحول المادة بعضها الى بعض يتوقف على نوع الصفات المطلوب حذفها أو اضافتها .. ويرى تعذر تحول الاشياء الاصيلة .

وهنا يقول جابر الذى يؤمن بمعجزة العلم ، انطلاقا من العقيدة الدينية :

(كيف يظن العجز بالعـــلم ، دون الوصول الى الطبيعة واسرارها) ؟..

الم يكن فى مستطاع العلم ان يجاوز الطبيعة الى ماوراء الطبيعة فهل يعجز عن استخراج كوامن الطبيعة .. وما هو مستور وراء حجبها ؟

اننا لانطالب من لاعلم له بالتصدى للكيمياء .. بل نطلب ذلك من ذوى العلم الذين استوفوا اركان البحث .

ثم ينتقل الى العلاقة بين العلماء وتلامذتهم فيقول :

والاستاذ الذى يغفل عن تلميذه يكون خائنا ، والخائن لايؤتمن ومن لا يؤتمن لا يؤخذ عنه علم . لأن العالم لا يكون الا صادقا .. ومخالف العلم مخالف الصواب ..

وينتقل الى التجربة العلمية ، وهى أساس الاكتشاف الحضارى فيقول عن العلماء أصحاب التجربة ومن لا تجربة له : من كان دربا ـ اى مجربا ـ كان عالما حقا ، ومن يكون دربا لم يكن عالما ، وحسبك بالدربة فى جميع الصنائع ، أن الصانع الدرب حذق ، وغير الدرب يعطل .

ويصف تجربته فى الكيمياء :

« وقد عملته بيدى وبعقلى من قبل ، وبحثت عنه حتى صح ، وامتحنته فما كذب » !

وقد سبق جابر بن حيان كل علماء أوربا أصحاب منهج البحث العلمى الاستقرائى .. الذين ظهروا خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر ، وهم جميعا اخذوا عنه .. واقاموا الحضارة الاوربية بفضل نظرياته واكتشافاته .. هو وعباقرة الحضارة الاسلامية تلك الحضارة التى قامت على اساس التوحيد .. وبلورها جابر فى كلمات كررها كثيرا فى كتاباته وهى العلم والعقل والنور .

عاش متنقلا بين البلدان ، هاربا من بطش الخليفة هارون الرشيد لأنه عرف هويته ، وانه من اتباع العلويين ، او من اتباع

الائمة المستورين الذين لهم الرئاسة الدينية فى الباطن علـى الأمة المحمدية . وبعد موت هارون الرشيد ظهر مرة ثانية فى عهد المأمون وكان يسمى جابر الصوفى ٠

وذاعت عنه أسطورة أيام الرشيد والبرامكة . وتقول الاسطورة ان جابر بن حيان هو السبب فى الفنى الفاحش الذى اصـاب الخليفة والبرامكة لأنه كان يحول المعادن الى ذهب .

وقد مات وهو فى التسعين من عمره وعندما بحثـوا بين انقاض بيته فى الكوفة بعد زمان طويل عثروا عـلى معمله كاملا ٠٠ وقيل ـ وتلك أسطورة ـ انهم وجـدوا فى معمله (هـاون) من الذهب يزن مائتى رطل ٠٠

تلك كانت قصة جابر بن حيان او ملك العرب كما اطلق عليه الاوربيون وهى قصة اعظم فى احداثها وفى بدايتها ونهايتها من كل قصص العباقرة فى كل العصور ٠٠ واذا كانت قصة جابر بن حيان قد اكدت أن العلم توام للايمان فان من واجبنا كدولة شعارها الآن العلم والايمان ان نسعى بكل جهد لنشر مفاهيم هذه القصة من خلال اجهزة الاعلام حتى يصبح عندنا اعلام مادته جاهزة وثمينة وليس اعلاما يعتـمد فى كل شىء على الترجمات والاقتباسـات والمفاهيم الغريبة عن عقولنا .. المؤمنة .

فليس فى تراث اوربا كلها فى بداية عصر النهضة قصة مثل قصة جابر او قصة الرازى او قصة البيرونى ، ومع ذلك فالاعلام فى اوربا وربما فى الدولة اللقيطة اسرائيل يسعى لنشر دعايته ومفاهيمه وفلسفته من خلال السينما والمسرح والصحافة والراديو والتليفزيون ليؤكد اصالة لا وجود لها فى تاريخ اسرائيل !

من الهند الى القمر

(قصـــة اعظم عقــــــل بشرى فى التـــــــاريخ)

ما معنى عصر الفضاء ؟

هذا السؤال . يطرحه العقل البشرى فى أى مكان ، من كوكب الأرض الآن . وهل هذا العصر اسطورة أم تجربة بشرية ؟

لقد حسم الانسان الامر ، وفـرغ نهائيــا من خطوته الاولى ، وللصعود الى السماء ..

ها هو الانسان فوق القمر .. وها هى سفن الفضاء تنطلق من الأرض الى القمر والى الزهرة والمريخ ، بمركبات كونية ، ليس فيها بشر ، وتقوم بالبحث العلمى ، بعد أن أصبح للجماد عقل منظم ..!

وسوف يشهد ابناء هذا الجيل ، ومن يأتى بعد هذا الجيل ، لو قدر للبشرية أن تعيش فتوحات حضارية كونية لانسان الارض ، قد تحسم موقف الانسان الأزلى ، المرابط بوجوده فـوق هــذا الكوكب !

وقد ينتهى الانسان فى المستقبل من ارتباطه الثابت بالأرض ، وقد يصبح هذا الانسان كائنا كونيا ، وطنه هذا الكون ، الذى بلا نهاية على الاطلاق وأرضه أى كوكب.أو احد الاقمار الواحدوالثلاثين المنتشرة مع تسعة كواكب حول الشمس .

انها أعظم مسيرة حضارية لانسان الأرض لكن كيف بدات هذه المسيرة ؟ فلا علم بلا علم سابق .. كما يقول جابر بن حيان !

أى لا شجرة بلا بذور .. (الأرض ليست مركز الكون ..)

من الذى وضع البذور المثمرة ؟ تلك التى اينعت أشجارا للعلم فى هذا القرن العشرين ، هذا القرن الذى يتطلع فيه الانسان للنجاة من كارثة الفضاء ؟

هاهو المستشرق الاوربى (سخاو) يتحدث عن عمالقة البشر من العلماء صناع الحضارات ـ الذين وضعوا بذور المعرفة والعلوم .. فكانت هذه الحضارة الأوربية فى هذا القرن العشرين .. ها هو المستشرق سخاو ينسب هذا للعقل الاسلامى .

ماذا قال سخاو ؟

قال يصف صاحب هذه السيرة من علماء الحضارة الاسلامية ، والذى اقدمه اليوم .. انه أعظم عقل بشرى فى التاريخ ..

لأنه وضع اخطر موسوعة فى علم الفلك .

اسمه أبو الريحان محمد بن احمد البيرونى ..

وهو الذى بدأ رحلة الانسان الى القمر فوق جبل عال فى بلاد الهند !

حدث هذا منذ الف عام .

وهو مع علماء الفلك المسلمين جعلوا علم الفلك يخضع للبحث العلمى التجريبى ، وكان قبلهم حتى فى عصر اليونان ، علمـــاء للتنجيم ونظريات عن الأفلاك سقط معظمها وطرح بعيدا .. لأنها لم تكن سليمة .

وعلى راس هذه النظريات الفلكية التى اسقطها بالبرهان ، علماء الحضارة الاسلامية ، نظريات ارسطوطاليس ... المعلم الاغريقى

العملاق .. ولم يكن أحد فى أوربا يجرؤ على مناقشة نظريات ارسطوطاليس ، أو ينسب اليها اى خطأ .

والبيرونى هو العقل الاسلامى الذى كشف عن حقائق الفلك ؟ بالتجربة والبحث المستمر والتنقل من بلد الى بلد .. والوقوف فوق الجبال .. ومراقبة السماء حتى أصابه ضوء الشمس بالمرض .!

ويقول مستشرق المانى معاصر : ان البيرونى هو صاحب التحول العلمى فى التفكير الفلكى .. وليس (كوبرنيكوس) الذى جاء بعد البيرونى فى أوربا بخمسمائة عام ..

وكوبرنيكوس ، الذى تنسب اليه الآن الاكتشافات العلمية التى اسقطت نظريات الاغريق فى علم الهيئة - اى علم الفلك - ليس الا احد تلامذة البيرونى !

ومع ذلك نرى أوربا حتى القرن السابع عشر تتجاهل الحضارة الاسلامية رغم أن كتب ومراجع هذه الحضارة مترجمة الى لغة أوربا وفى مكتبات لندن وبرلين وباريس وكل عواصم العالم الاوربى .. فلماذا هذا التجاهل ؟

أنه موقف عنصرى فاضح ..فالحضارة الاوربية ،هى الحضارة التى تتعصب دائما ضد الشرق ، ومن خلال هزيمة أوربا فى الحرب الصليبية تفجرت الأحقاد الأوربية ، وملأت القلوب حتى قلوب العلماء ..

ومن هنا نستطيع أن نفهم لماذا يتجاهل البعض الحضارة الاسلامية ..فهذا الموقف صريح وثابت، بقرارات من دول الاستعمار فى مؤتمر لوزان كما قال مدير التحرير الذى قدم دراساتى هذه الى القراء .

وتلك القرارات الاستعمارية تنص على عزل الشعوب الاسلامية عن تراثها وعقيدتها ، حتى لا تبعث من جديد .. وحتى يتمكن الاستعمار الاوربى من السيطرة الكاملة على مستقبل البلاد الاسلامية

ويقول الدكتور محمد حسين هيكل فى كتابه (الشرق الجديد)
ان اوربا حاولت تعريب الشرق ، لكن محاولتها حتى لو نجحت فهو نجاح مؤقت ، وسرعان ما يعود الناس الى تراثهم وعقيدتهم لأنهم أناس شرفاء فالوراثة كما تقول الدكتور هيكل مؤكدة فى الجماعات مثلما هى مؤكدة فى الأفراد .. وقد ورث الشعب هذا التراث . فلا قوة مهما كانت تستطيع اقتلاع الشعب من جذوره الحضارية ، كما يقول الدكتور هيكل .

ان صاحب هذه السيرة الحضارية « ابوريحان البيرونى » هو مكتشف قوانين الجاذبية ومكتشف حركة الارض حول محورها ، مكتشف السبب في تفاوت الليل والنهار .. والسبب هو حركة الأرض وليس حركة الشمس كما قال ارسطوطاليس واليونان . وهو الذى قال ان الأرض ليست هى مركز الكون كما ادعى ارسطوطاليس ، وهو صاحب اعظم موسوعة فلكية علمية فى التاريخ نقلت علم الفلك من التنجيم الى الحقائق التى اقامت أوربا عليها أسس نهضتها الحديثة فى هذا العلم . والموسوعه هى كتاب (القانون المسعودى)

ومن الغريب ، بل من المدهش ان نرى الاستاذ فؤاد صروف فى كتابه عن اساطين العلم الحديث ينسب الى كوبرنيكوس الشجاعة العلمية التى دفعته الى اسقاط نظريات الاغريق ، ومعلمها الأول ، ويقول انه أول من تجرأ على ذلك .

وهو لا شك لم يجهل اسماء جابر بن حيان والبيرونى وابن سيناء والرازى وغيرهم ممن اسقطوا كل اخطاء الأغريق ، وعدلوا من نظرياتهم وطرحوا اكثرها بعيدا واعترف المستشرقون انفسهم بذلك ..

ولكن فؤاد صروف لا يذكر الحضارة الاسلامية بكلمة واحدة ، تماما مثل غيره من المفكرين الذين ارتبطوا عقليا بمنهج اوربا فى الشرق الاسلامى .

نى هو اول عالم فى التاريخ يعطى شرحا هندسيا لحركة
ى السماء .

اسقاط نظريات بطليموس

يقول المؤرخون ان (البيرونى) لم يسقط نظرية أرسطوطاليس فى الفلك فقط ، ويأتى بالنظرية الصحيحة ، بل انه قـم بنقد بطليموس فى كتابه (المجسطى) واثبت بالبرهان صحة أفكاره ، المتصادمة مع بطليموس بأسلوب علمى تجريبى .. فهو كان يقوم بعمليات الرصد بنفسه .. وظل ينظر الى الشمس حتى ضعـف بصره ..

وقد أثبت خطأ بطليموس فى ارتفاع (اوج الشمس) ، وذلك كان أخطر اكتشافاته الفلكية ؛ فلم يكن أحد قبل البيرونى يعرف ان أوج الشمس متحرك وليس ثابتا كما قالت نظريات الاغريق !

واثبت البيرونى بعمليات هندسيه صحيحة ، ان حجم الشمس اكبر من حجم الارض وان القمر أصغر من الأرض .

كما أثبت حركة الشمس على مدار السنة حول الأرض . وكان يرصد كسوف الشمس حتى أصيب فى عينيه . وهو اول من اشار الى قوانين الجاذبية لم يسبقه احد الى ذلك فى تاريخ الحضارات كلها .. فهو الذى سبق (نيوتن) صاحب نظرية الجاذبيـة فى العصر الحديث . والذى جاء بعد البيرونى بسبعمائة عام !

عارض البيرونى اليونان والفرس والهنود فى علوم الفلك .. واثبت صحة نظرياته الفلكيه بالتجربه فكان ينتقل للرصـد فى جميع البلاد .. حتى وصل الى الهند .. وأقام اربعين سنة . !

وهو يدلل على كروية الأرض بظهور أعالى الجبال فى البداية ثم تبدأ كلها فى الظهور بالتدريج .. ويضرب مثلا آخر بالسفينـة عند الأفق .. ورؤيتها رويدا رويدا كلمـا اقتربت .. ثم نراه

يناقش فكرة دوران الأرض حول محورها .. ثم هاهو يقيس حجم الأرض نفسها وكان متعمقا فى دراسة العقائد والفلسفات .. وكان يبتكر اساليب جديدة لحل المعادلات الرياضيــة .. فاذا جاء جريجورى ونيوتن وهما من اساطين الحضارة الاوربية الحديثة كانت قوانينهما من نظريات وقوانين ابو الريحان (محمد بن احمد البيرونى) ..

الجغرافيا والحضارة الاسلامية

قبل الاسلام . كان البحث العلمى متوقفا . والحضارات تتهاوى وتتحلل وكان التراث البشرى فى مخازن تحت الأرض وكان الرومان يتعمدون اسقاط الحضارة اليونانية من وجودها التاريخى المؤثر حقدا منهم على الاغريق ، تماما مثلما فعلت اوربا بالنسبة للحضارة الاسلامية بعد الحروب الصليبية .

ويصف البيرونى ظهور الاسلام وارتباط ذلك ببعث العـلوم البشرية وصـفا رائعا وهو يتحـدث عن رحلات العلماء فى بقاع الأرض .. بحثا عن المعرفة .. والاخطار الهائله التى كان يتعرض لها الباحث عن الحقيقة .

ومن كان يهدد البحث العلمى والكشف العلمى قبل الاسلام ؟

يقول البيرونى ان اليهود كانوا يقطعون الطريق على الرحلات ويقتلون العلماء تقربا الى الرب .. اما الرومان فكانوا يأخذونهم أسرى .. ثم يستعبدونهم .

كانت المسافات شاسعة .. والانتقال من مكان الى آخر يتربص فيه الموت . وفى كتابه (تحديد نهايات الاماكن) يقول عن ظهور الاسلام واثره فى تطور البحث العلمى ، واهمية توحيد البشر تحت راية موحدة ، حتى تمضى رحلة العلم فى سلام .

« قبل الاسلام . كانت المسالك فيما سلف عسرة السلوك ، لما كان فى أهلها من التباين الملى . فمن اسراع الى اغتيال من يخالفهم فى الدين تقربا الى ربهم ، كما فعل اليهود . واستعباده - وهو أسلم أحواله - كما يفعل الروم ، او انكار حاله لغربته . واتجاه التهم اليه وبلوغه غايات المكاره . فلما ظهر الاسلام فى مشارق الأرض ومغاربها ، فى الاندلس غربا حتى اطراف الصين والهند شرقا ، وفيما بين الحبشة وافريقيا جنوبا ، والترك والصقالبة شمالا ، جمع الامم المختلفة على الألفة التى هى من صنع الله ، وصارت البقية التى لم تدخل الاسلام ، ترهب اهله وتهادنهم ، لذلك فان تحصيل المسافات الآن ، بالسمع والنظر أوثق وأصح » !

وهكذا بدأ البيرونى رحلاته الكبرى فى كوكب الأرض انطلاقا من الامن العريض والألفة بين الناس بعد ظهور الاسلام .. فى الشرق والغرب . !

وتحقق له ما اراد .. من كشف وراء الآخر . فى علوم الفلك والرياضيات ، وهى العلوم التى أوصلت اوربا اخيرا الى عصر الفضاء !

وتمجيد العقل واعتباره الدليل والحكم كان منهج الحضارة الاسلامية وأساس فلسفتها وهو منهج القرن العشرين الآن فى البحث عن الحقيقة .

ويقول المؤرخون والمستشرقون ان الحضارة الاسلامية ، ابتكرت واكتشفت أهم العلوم التى أوصلت اوربا الى عصر الفضاء الآن .. ومن أهم تلك الاكتشافات علوم الفلك وعلوم الرياضيات وهى أساس علوم عصر الفضاء .

دليل فى الصحراء

وهو يتحدث عن اعداء العلم .. أى عن اعداء الحضارة .. ويصفهم وصفا دقيقا .

فهم مثل الحيوانات كما يقول ، بل هم اضل من الانعام ١٠

فيضرب البيرونى مثلا من التاريخ الغريب وهو يبرهن على ضرورة تعلم العلم - ومن هذا العلم ٠٠ علم الجغرافيا ، فهو علم يساعد على النجاة واحياء الجماعات ، كما يقول مخاطبا هذا الجاهل الذى لا يرى فى الجغرافيا او اى علم اية فائدة ٠

ولو احاط علما ، بخبر خالد بن الوليد ، حين قطع بادية ما بين العراق والشام ، ثم اخراج الدليل بالعلامات الى موضع الماء ٠

وذلك الدليل الذى انقذ جيش خالد بن الوليد من الفناء كان اعمى ، لكن لهدراية بالتحقيق فى المعارف والعلوم وقد احيا جماعات قد ايسوا من انفسهم كما يقول البيرونى ٠

ومن المثير للتامل ، ان البيرونى كان يستوحى كل خطواته العلمية ويبرهن عليها بآيات من القرآن الكريم ٠

ها هو يشرح علم الجغرافيا للناس ٠٠ ويسترشد بالقرآن ، فيبدأ بقوله تعالى : (أو لم يسيروا فى الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ٠٠) وقوله تعالى (فأسر بعبادى ليلا انكم متبعون) وسائر أوامره سبحانه وتعالى بالسير والسرى ، للاعتبار وللغزاة والحج والهجرة ، ثم للتصرف فى النصيب من الدنيا الذى لا ينسى ٠٠ وغير ذلك مما لا يتحقق بغير الاسفار الشاقة ٠

وفى كشوفاته الفلكية نراه يدلل عليها بآيات من القرآن الكريم ايضا ٠٠ ويرى أن العلم يحقق للانسان التأمل من قدرة الخالق ٠٠ سبحانه ٠

والبيرونى لا يعترف بالتنجيم ولا ينسبه لأى علم ، لكنه يتحدث عن سبب ظهور التنجيم فيقول :

كما كان الانسان ، بما فى غريزته من العلم ، حريصا على تعرف ما غاب عنه ، وعلى تقديم المعرفة بما يستقبل من حالاته

ليتمكن بها من الاحتياط ودفع ما يمكن دفعه من الحوادث ، وكانت تتعاقب عليه من تأثيرات الشمس فى الأهوية وتأثيرات القمر فى البحار فتدرج بتجاربه فيها الى القياس بغيرهما من الكواكب ، وحصلت له صناعة احكام النجوم من غير عناء ولا تكلف ما ليس بها .. وحدد البيرونى تعريف علم المنطق بقوله :

« ان الانسان كائن ناطق ، يتلف فى الرأى مع من ينطقون مثله ، والنطق يحتمل الصدق والكذب ‥ لذلك استخرج علم المنطق » .

الموسيقى والنظام

وها هو يتحدث عن الموسيقى ‥ بمفهوم الحضارة الاسلامية ‥ فعلوم الموسيقى ظهرت فى ظل الحضارة الاسلامية ‥ ابتكرها الخليل بن احمد الفراهيدى ..

يقول البيرونى مفسرا ظهور الموسيقى وارتباطها بالمدنية والحضارة ، ان الالحان الموسيقية سعى اليها المترفون وغير المترفين ، الاغنياء والفقراء ، فى الدولة المتمدنة ‥ ويرى البيرونى ان علوم الموسيقى ظهرت لحاجة الانسان الى النظام .. لذلك حدثت العلاقة بين الشعر والموسيقى ‥ وظهر الغناء .

فالنفس للنظام اقبل . حتى انها وجدت الى الشعر بسبب نظامه اسرع ومن الملحون به منه أميل لاجتماع نظام الشعر الى ائتلاف اللحن .

وما رأى البيرونى فى عداء بعض الناس للعلم .

ولماذا تمتلىء بعض القلوب بالكراهية للعلوم ؟

يقول البيرونى وهو يصف اعداء العلم عندما يستمعون الى قصة العلم :

« يستمع اليها استماع معاند يرجع فى عقباه الى نذالة الأصل »
ويقول لك : ما الفائدة فيها ؟ جهلا منه بفضيلة الانسان على سائر الحيوان .. واية منفعة اظهر من اجتلاب الخير واجتناب الضير دينا ودنيا ، الا به ـ اى بالعلم .

العلم ... والدين

ويرى البيرونى ان العلم يؤدى الى الايمان بالله .. ويؤكد ذلك .. ان علم الفلك الذى برز فيه البيرونى ، وسبق فيه كوبرنيكوس الأوربى بخمسمائة عام . ها هو علم الفلك ينص على طلبه القرآن .. فالقرآن نادى بان يفكر الانسان فى خلق السموات والأرض .. يقول سبحانه وتعالى :

(ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا) . ويعتقد البيرونى ان هذه الآية الشريفة اشتملت على الحكمة كلها ، فى موقف الاسلام من العلوم البشرية .. وهو يفسرها وهو يرد على اعداء العلم .

وهذه الآية الشريفة قد اشتملت على جوامع ما فصلته ، والى ان يستعملها الانسان حق استعماله ، وقد اتى على كل العلوم والمعارف .. ونظرية البيرونى فى تفسير آيات القرآن الشريفة بشرحها بقوله :

(فاما ان ياخذها الانسان تقليدا وحكاية ، واما ان يحققها علما ودراية .. وشتان بين محقق ومقلد) .

ويؤكد نظريته بآية شريفة أخرى .. يقول سبحانه وتعالى :

(هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ، انما يتذكر اولو الالباب) .

وينادى البيرونى العلماء بالابتعاد عن التقليد والنقل .. وان يكفوا عن طلب المال .. ! فها هو يرفض هدية من الفضة محملة

فوق فيل مكافأة له على كتابه الخطير فى الفلك القانون المسعودى .. يرفض الغنى والثراء لانه لا نيـة اذن لنفع الناس بالعـلم مادام العلماء يسعون الى الذهب ، ولكن ما هى العلوم ٠٠ ماقيمتها للبشر ؟

يقول البيرونى ان العلوم يحتاج اليها الانسان لأنه مضطر الى ذلـك !!

كيف .. ؟

(أما العلوم فقد اضطرته اليها ـ يقصد الانسان ـ كونه فى العالم ، مدة تصرفه فيه على قضايا التكليف ، لانه لكثرة حاجاته وقلة قناعته وتعريه من آلات الدفاع ، مع وفور اعوائه ، لم يجد بدا من التمرن مع أهل جنسه قصدا لاشتغال كل واحد منهم ، بشغل يكفيه ويكفى غيره) .

والبيرونى هو اعظم عقلية بشريه فى التاريخ ، لأنه فهم روح الحضارة الاسلامية ٠٠ وهى الروح التى تنادى بطلب العلم حتى اللحد ، ولو نطق بالعلم كافر . والبيرونى يتفوق على عقول جميع العلماء فى تاريخ الحضارات عندما يضع القـوانين الرياضية .. وهناك قاعدة رياضية باسـمه (قاعدة البيرونى) وهى معـادلة رياضية تستخدم فى حساب نصف قطر كوكب الأرض من مجرد التعرف على محيطها ٠٠ (وأسلوبه فى البحث العلمى هو اسلوب الحضارة الحديثة الآن ..) بل هو يسبق كل العلمـاء فى الفلك بالتضحيات التى اقدم عليها ، وهو يثبت بالبراهين نظرياته الفلكية ٠٠ فيكاد يصاب بالعمى وهو يرقب الشمس ٠٠ ثم يتنقل من بلد الى بلد . وحين يبدأ السلطان مسعود فى فتح الهنـد ، يرافق السلطان حبا منه فى نشر العلم .

والبيرونى هو الذى نقل علوم الحضارة الاسـلامية وعـلوم الاغريق والفرس الى الهند .

وهو الذى نقل ودون علوم الهند وتاريخ الهند .. وكان يؤمن باللغة العربية ويدافع عنها .. ويرفض المناقشة حول استبدالها

باية لغة اخرى رغم انه كان يجيد اليونانية والفارسية والسريانية وغيرها من اللغات !!

ويرى البيرونى ان للغة العربية فضلا على لغات العالم المعروفة فى ذلك الوقت ، لذلك نراه يكتب بها كل مؤلفاته التى بلغت المائة والخمسين كتابا .. من اخطر كتب العلوم !!

ونراه يتصدى بقوة للدفاع عن اللغة العربية ضد التيارات الفارسية والاعجمية . ونراه ينادى بالرجوع الى علوم القدماء ، والتجرد من فكرة التفوق العنصرى او الدينى !!

وقد قضى فى الهند اربعين عاما . وكتب عنهم كتبا كثيرة ، وينتقد البيرونى أسلوب الهنود فى البحث العلمى ، لأنه منهج غير علمى .

والوجدان العلمى عند العرب مرتبط باللغة والادب .. فنرى العلماء والادباء فى كل مكان من البلاد الاسلامية .

ذلك ان الكلمة هى اداة التعبير عند العرب ، وليس النحت او الرسم او صناعة التماثيل ، او الفنون التشكيلية بصفة عامة ، من اجل هذا نرى العلماء العباقرة مثل البيرونى وجابر بن حيان وابن سينا يملكون الى جانب عبقريتهم العلمية موهبة التعبير بالكلمة .

واكثر علماء الحضارة الاسلامية ادباء وشعراء وفلاسفة ولعل ذلك بسبب اقبالهم على حفظ القرآن والحديث الشريف قبل أن يخوضوا تجربة البحث العلمى والاكتشاف العلمى . وها نحن نرى ان حفظ القرآن الكريم كان هو نقطة الانطلاق لكل العلماء والعباقرة فى الامة الاسلامية عندما كان هؤلاء العلماء هم رواد الحضارة وهم اساتذة العصر ثم كل العصور فيما بعد .. مثل ابن سينا وغيره .

لماذا يجمع عالم الفلك بين الفلك وعلم آخر يتفوق فيه بنفس الدرجة ؟؟ وفى كل قصة من قصص عباقرة الحضارة الاسلامية

الذين كانوا سببا فى ظهور حضارة القرن العشرين فى اوربا نجد فى القصة سطورا عن بطلها الذى حفظ القرآن والحديث ودرس الفقه والشريعة قبل ان يبدأ فى الاشتغال بالعلوم الحضارية !! هل هذا هو سر تفوق عباقرة الحضارة الاسلامية على غيرهم ؟؟

ولماذا كان هؤلاء العباقرة هم الرواد لكل علماء اوربا فيما بعد .؟؟

لماذا لم يكن الاغريق هم الرواد ؟

لقد ثبت ان عباقرة الحضارة الاسلامية قد اسقطوا أكثر نظريات الاغريق العلمية واثبتوا عدم صحتها .. ومع ذلك نرى المؤرخين الأوربيين يتجاهلون هذه الحقيقة حتى القرن الثامن عشر حين ظهر المفكر الأوربى الصادق من امثال جوستاف لوبون وجوته وجان جاك روسو الذى كانت شهادته فى العقد الاجتماعى للدين الاسلامى من أروع الشهادات وقوله انه لم يظهر دين استطاع ان يؤسس دولة عظمى مثل الدين الاسلامى - لقد كان حفظ القرآن الكريم الهاما للعلماء فى اكتشافاتهم العلمية التى غيرت وجه التاريخ البشرى فالعلماء الذين حفظوا القرآن الكريم والحديث الشريف وتعمقوا فى الدين هم الذين تفوقوا فى علوم الكيمياء والضوء والصيدلة والطب والفلك والهندسة والموسيقى والجغرافيا وكل العلوم . أليس هذا هو البرهان الواضح والمؤكد الذى يجعل شعار العلم والايمان هو اعظم الشعارات ؟؟

فالعلماء العباقرة من المسلمين هم الذين ابتكروا علم الجبر . وهم الذين استعملوا الصفر لاول مرة فى التاريخ .. ومن القرآن الكريم وجد العلماء المسلمون الهاما متدفقا عبروا عنه باكتشافات غيرت وجه العالم .. ومنها مثلا الكسر العشرى .. وهو وارد فى آية شريفة من القرآن !!

وظل الاوربيون يعرفون اللوغارتمات باسم مبتكرها .. عبقرى الحضارة الاسلامية « الخوارزمى » .



من أجل هذا نقول .. انه لولا اكتشافات العلماء العرب فى الفلك ولولا مسيرة الحضارة الاسلامية الملهمة لما استطاع انسان كوكب الارض أن يصل الى القمر .

نعم بدات الرحلة الى القمر ، من فوق جبل فى الهند ، وقف عليه البيرونى يقيس المسافات ويعد النظريات .. ثم وضع كتابه الذى يعتبر موسوعة علمية متكاملة فى علوم الفلك والرياضيات .. كتاب « القانون المسعودى » الذى توجد منه نسخة فى كل من لندن وفى باريس وفى برلين وفى تركيا وفى القاهرة وفى الاتحاد السوفيتى .

وقد قام بتحقيق هذا الكتاب الخطير العالم السوفيتى المعروف « ميكائيل » ثم اطلقت الحكومة السوفيتية اسم البيرونى على البلدة التى ولد بها فى ازبكستان ، وتسمى اليوم « مدينة البيرونى » .

ويبدا كتابه الخطير هذا بالحديث عن هيئة السماء وشكل الارض ومكانها فى الكون ، وحجمها بالنسبة الى هذا الكون .. ثم يتحدث عن حركات الاجرام السماوية .. ثم اسقط آراء بطليموس .. بالبرهان العلمى والتجربة ، كما أسقط نظرية ارسطوطاليس فى الفلك وعلم الهيئة ، وطرحها بعيدا !

وهو على فراش الموت كان يسال عن مسالة رياضية ، فهو يخشى ان يموت قبل أن يعرفها ثم يبتسم عندما يجيبه الصديق عن سؤاله العلمى ، ويظل يبتسم .. ثم يموت .

يموت مخلفا تراثا علميا جعل المؤرخين والمستشرقين يطلقون عليه دون غيره لقب « الاستاذ » .

.. عالم فلك ورياضيات .. لكنه مؤرخ ولغوى وفيلسوف . مثله مثل كل عباقرة الحضارة الاسلامية .. فهم يتوحدون فى عقيدتهم ، وفى علومهم !!

ديكارت وجعفر الصادق

ابو الفلسفة الحديثة فى اوروبا ، هو الفيلسوف ديكارت ؛ وهو حامل لواء المذهب العقلى ، وهو قد أخذ فلسفته من مفاهيم الحضارة الاسلامية . رغم انه لم يكشف عن ذلك السر .

وهو ليس سرا بعد أن ذاع التاريخ الحضارى للامة الاسلامية

وكان اصدقاء ديكارت يقولون له صراحة : نظريتك الفلسفية حول اثبات وجود الخالق ، ليست جديدة .. فقد ذاعت فى القرون الوسطى ..

ولم يكن ديكارت يبدى دهشته من هذا الكلام .. فهو كان يعلم ان الافكار الفلسفية فى اوروبا ، قبل عصر النهضة ، جاءت اليها اى الى اوروبا من الأندلس !

احدى قواعد الحضارة الاسلامية فى هذا العالم .

على أى حال .. لا مفر من المقارنة .. حتى نثق تماما ، نحن المسلمين ، ان حضارتنا الاسلامية لم تمنح العالم هذا التقدم التكنولوجى وهذه الحضارة الحديثة فقط ، بل منحت العالم نظريات فلسفية اقتبسها الأوروبيون اقتباسا مباشرا من التراث

الاسلامى وعلى راس هؤلاء الفلاسفة فى هـذا العصر الحـديث كبيرهم ديكارت . ابو الفلسفة الحديثة .

ماذا يقول ديكارت فى نظريته عن الله سبحانه وتعالى ؟

يقـول :

« ان الله هو المبدأ الأول .. هو الموجود بذاته ، اما الاشياء الاخرى ، فانها اذا وجدت حقا ، فليست موجودة بذاتها ، بـل هى محتاجة الى مبدأ ، والى علة لوجودها .. والمبدأ الاول ، اى الله سبحانه ، فى راى ديكارت ، هو الكائن اللامتناهى ، الواحـد الأزلى الدائم ، المستقل بذاته ، المحيط علمه بالاشـياء جميعا ، والحائز لجميع الكمالات » .

وفلسفة ديكارت كما يقولون ، مرتبطة بالدين . فالمقارنة اذن ستكون هنا بين ديكارت ، وبين الأمام جعفر الصادق .. الذى عاش ومات قبل ديكارت بالف عام ، وهو صاحب نظرية ارتباط العلم بالدين .

الاصـــل والظـــل

ان السلطة الاجنبية فى بلاد المسلمين ، حجبت عن عقـــول التلاميذ فى المدارس ، قصة حى بن يقظان ، وهذا مثل بسيط ، وهى القصة التى كتبها ابن طفيل الاندلسى ، فلماذا لم نعرف هذه القصة فى مدارسنا ونحن صغار ، وفى نفس الوقت كنا نقرأ قصة روبن صن كروزو ، وبول وفرجينى ، وغيرها من القصص التى تتحدث عن انسان الطبيعة ، وهى نفسها قصـة حى بن يقظان .. أو مقتبسة منها اقتباسا مؤكدا !!

والآن أصبح علينا ان نعرف ، بل نثق تماما ، اننا الاصـــل لهذه الصورة الحضارية فى هذا القرن العشرين !

كانت مؤامرة الاستعمار الاوربى على التراث الحضارى لامتنا . مؤامرة الصمت ! ولعل جيلنا من ابناء الامة ، لايزال يذكر كيف

أن الاستعمار الأوربى فى مصر الاسلامية ، شجع على تلقين أبناء المدارس فى مصر ، قصة « جان دارك » وهى رمز اوربى للبطولة ، وفى نفس الوقت ، لم يسمح الاستعمار الاوربى بدراسة قصة السيدة زينب ، رضى الله عنها ، وهى بطلة عظيمة فى تاريخنا ، وحجب عنا قصة السيدة نفيسة العلوم ، وقصة شيخ الاسلام الذى افتى ببيع المماليك وشراء أسلحة بثمنهم خلال الحروب الصليبية ، لأن المماليك دفع الشعب ثمنهم من ماله !

اســـاتذة ديكارت

يقول المؤرخون ان ديكارت لم يكن يصاب بالدهشة ، اذا أشار اصدقاؤه اليه ، بان أفكاره قد سبق ان ترددت فى القرون الوسطى !!

احد اساتذة ديكارت الذين سبقوه فى التعريف الشامل بفلسفته ، عاش فى بلاد المسلمين قبل ديكارت بألف عام .

وهو استاذ ديكارت وغيره من فلاسفة اوربا وعلماء اوربا .. وهو رجل دين .. بل هو امام للمسلمين.. وله الرئاسة الدينية على الأمة الاسلامية فى الباطن . اما فى الظاهر فالرئاسة كانت للعباسيين فى ذلك الوقت !

وهو الامام السادس من اثنى عشر اماما ستقوم القيامة بعدهم كما يقول اتباع هذا المذهب ..!

اسمه الامام جعفر الصادق . حفيد الامام الحسين رضى الله عنه .

وجعفر الصادق هو الذى علم جابر بن حيان اسرار علوم الكيمياء .

وهو بذلك ، صاحب الفضل الأول على الحضارة الاوربية الحديثة التي اخذت عن جابر بن حيان ، اخطر العلوم الحضارية ،

ولولا جابر واستاذه جعفر الصادق ، ما كانت توجد كيمياء ..
فمن هو جعفر الصادق .. وماذا قال ، وهو الذى ظهر قبل ديكارت بألف عام !

حذار من الهلاك

انظروا ...

لا يستحق لقب انسان فى هذا المكان الا هذا الشيخ .

وسكت ابن المقفع وهو ينظر الى جعفر الصادق ، الذى جلس خاشعا فى ركن بعيد من البيت الحرام ، بينما الناس يهرولون فى فوضى وبلا تعقل !!

ولم يكن ابن المقفع يعرف ان هذا الشيخ هو الامام السادس بين الأئمة المستورين او الذين يحكمون الأمة من الباطن .

وجعفر الصادق صاحب الفضل الأول ، فى اسقاط حجج الملاحدة ، فى العصر العباسى المنحل .. !!

وقد تصدى للفتنة وكشف عن سطحية أصحاب الفلسفات المنقولة ..

وقد اخذ جعفر الصادق العلم عن جده رسول الاسلام عليه السلام ، وعن جده على بن ابى طالب وعن جده الحسين .. سيد شباب أهل الجنة ..

وهو حين يطرح فلسفته عن الخالق سبحانه فانما ينقل راى النبى وراى ولى كل مؤمن من بعده ، الامام على ..

يقول خاتم الأنبياء ان التفكير فى ذات الله يهلك العقل . اما التفكير فيجب ان يكون فى خلق السموات والارض ، حتى يعرف الناس قدرة الخالق .. فيزداد ايمانهم !

ان محاولة الوصول الى حقيقة الله مستحيلة .

وجاء ابو الفلسفة الأوربية الحديثة . « ديكارت » بعد ذلك بالف عام .. ليقول هذا الكلام .. فى نظرية !!

يقول ديكارت فى فلسفته :

« انى افكر .. فانا موجود وليس وجودى بنفسى .. فانا غير كامل .. اذن فالكامل هو الذى اوجدنى .. والكامل هو الرب .. هو الكمال المطلق » .

ثم يقول عن العقل البشرى :

« ان الحقائق التى هى ضرورية ، عند العقول البشرية ؛ ليست ضرورية عند الله ، والله خالق هذه الحقائق ومهما يكن الأمر ، فليس الله مضطرا ازاء اى شىء » .

ثم يقول مرددا الفلسفة الاسلامية فى نظرية ينسبها الى نفسه :

« ان محاولة التعرف على ماهية الخالق مستحيلة ، لان الخالق لا يخضع لأية ضرورة » .

واذا قرأنا أقوال جعفر الصادق ، الذى تصدى للملاحدة ، فى عهد العباسيين ، لظهر لنا ان ديكارت كان تلميذا فى مدرسة الحضارة الاسلامية .

اين الله ..؟

ان المسلمين بعد وفاة الرسول ، عليه الصلاة والسلام ؛ اصابتهم الرغبة فى فهم ذات الله ، وكان الامام على بن ابى طالب هو فارس الفتوى فى كل ميدان للفكر الاسلامى .

جاء اعرابى الى الامام على بن ابى طالب يسأله ؛

- أين كان الله قبل ان يخلق السموات والارض ؟!
ورد عليه الامام على بقوله :
- اين ؟ سؤال عن مكان ؟!
- نعــم ..
- وكان الله ولا مكان .. ايها الاعرابى !
وجاء رجل ثان وسأل الامام عليا :
- اين الله ؟!..
- الذى اين الأين .. لا يقال فيه اين ..
والاينية .. اى السؤال عن المكان مخلوقة !

ومن نبع العلم المحمدى .. شرب جعفر الصادق .. معلم الحكمة فى زمانه .. فهو الذى يقول قبل ديكارت بالف عام

« لايستطاع ادراك ذات الله ، مهما حاولت العقول .. ومن زعم ان الله تعالى فى شيء او من شيء او على شيء فقد اشرك ؟ لأنه لو كان على شيء ، لكان محمـولا ، ولو كان فى شيء لـكان محصورا .. ولو كان من شيء لكان محـدثا . والله يتعـالى عن جميع ذلك » ..

ان الاسلام حذر من ذلك ، اشفاقا منه على العقل .. فلا يجب ان يهلك الانسان عقله فى محاولة الوصول الى المستحيل .. والوصول الى معرفة الله مستحيلة !

وهكذا عرف ديكارت ابو الفلسفة الاوربية الطـريق الى نظريته .. من تراث الاسلام . وكان عصر جعفر الصـادق (الدولة العباسية) هو العصر الذى ظهر فيه الملحدون .

وكان الامام جعفر الصادق ، هو الذى تصدى لمناقشـة الفلسفات الملحدة . تماما مثلما فعل « ديـكارت » فى اوربا الحـديثة !

لماذا لا يرى ؟

جاء الى جعفر الصادق من يسال :

ـ ايها الامام .. ما منع الله من الظهور لجميع خلقه .. لماذا اختفى عنهم وارسل اليهم رسلا .. لو كان قد ظهر بذاته لهم لكان ذلك اسهل الى الاعتقاد به ؟؟

وقال جعفر الصادق للرجل الذى لا يرى الله !

ـ كيف اختفى عنك ، من اظهر قدرته فى نفسك .. وفى نموك ؟!

ومضى جعفر يحصى للرجل قدرة الله فى نفسه حتى قال الرجل .. بعد ان اقتنع :

ـ ظننت ان الله قد نزل بينى وبينه .

كانت حياة جعفر الصادق جهادا مستمرا للتعريف بموقف الاسلام من الفلسفات التى اقحمت على العقول فى العصر العباسى .. واخذ على عاتقه انهاء هذه الفتنة !

وحجة جعفر الصادق فى اثبات فكرة الاسلام عن الله سبحانه وتعالى ، هى الحجة التى اصبحت نظرية علمية بعد ذلك .. فى اوربا الحديثة .. لكن ديكارت لم يكن ملزما بالاعتراف بذلك .. لانه اوربى ينتمى الى مجتمع مختلف وحضارة جديدة تنفى عن الاسلام اية ميزة وترفض أن تعترف بفضل المسلمين على أوربا .. واستاذية المسلمين لاوربا !!

واحد فقط من الاوربيين المشهورين ومن عصر ديكارت هو الذى اعترف بأن الاسلام الهمه كل انتاجه وكتاباته واشعاره التى هزت أوربا .. ذلك هو المفكر والشاعر الالمانى العظيم « جوته » .

وهو الذى اعتنق الفكر الاسلامى صراحة .. وكتب شعرا يتضمن آيات من القرآن الكريم .

رسام فرنسى يتكلم

ان الحضارة الاوربية الحديثة قامت بفضل العبقرية الاسلامية كما اعترف المؤرخون فى هذا القرن العشرين فقط .. وقبل ذلك كانت مؤامرة الصمت من حول التراث الاسلامى .. لمصلحة السلطة الاجنبية والمصالح الاوربية فى الشرق !!

وقد عبر رسام فرنسى مشهور عن موقف أوربا من التراث الاسلامى أصدق تعبير ، ولا غرابة فى ذلك فهذا الرسام الفرنسى « رينيه » أعتنق الاسلام بعد ذلك ..

يقول رينيه عن موقف اوربا من الاسلام ودهشته لذلك :

« ليت شعرى .. ماعسى أن يكون منشأ البغض الذى يضمره الأوروبيون للاسلام ؟. وهو ـ اى الاسلام ـ رغم عدم قابليته للتغيير ، يقدم لاوربا كثيرا من الادلة ، على احترامه لعيسى ، وهذه الكراهية للاسلام استمرت حتى عصرنا هذا .. رغم ان عصرنا هذا هو عصر عدم المبالاة بالدين (القرن العشرين) ..

ويمضى الفنان الفرنسى الكبير يقول عن ذلك :

« هل سبب هذه الكراهية ان الاسلام نشأ فى بلاد آسيوية ؟ ولكن .. الم تكن المسيحية آسيوية فى جوهرها قبل تخليصها من اليهودية على ايدى بولس الرسول ؟.. فقد قال المسيح عليه السلام : انى لم ارسل الا لنعاج بنى اسرائيل الضالة ! » .

اذن ما هو السبب فى كراهية اوربا للاسلام وتجاهلها للتراث الاسلامى !

يقول الرسام الفرنسى « رينيه » :

« انها ذكرى الحروب الصليبية .. ذلك هو السبب فى الكراهية .. نعم .. ان هذه الذكرى لاتزال تفعل فعلها المشئوم فى نفوس الكثيرين من الاوروبيين الجهلاء !

ومضت اكاذيب كتاب اوربا تفترى على الاسلام حتى بعد عصر النهضه الاوربى !

رغم ان المسلمين هم اصحاب الفضل فى ظهور النهضة الاوربية .

ومن الكتاب الذين امتلأت قلوبهم بالحقد الاسود على الاسلام بعد عصر النهضة باسكال ومالرانش فى القرن السابع عشر ، ورينان فى القرن السابع عشر وكازانوفا فى القرن العشرين .

وكان على راس هؤلاء جميعا ، فى حقدهم وتشهيرهم بالمسلمين ، اليهود وكتاب اليهود فى اوربا ! ..

كان اليهود وراء كل حرب ضد المسلمين والاسلام كما تقول نشرات البحوث الاسلامية فى القاهرة .

الحضارة الاسلامية

غير أن اوربا التى قامت حضارتها الحديثة ، على مبدأ التعصب والقهر ونهب ثروات الشرق وعلى السخرة والسرقة ، وتحطيم القيم الانسانية فى ربوع الشرق .. أوربا هذه يخرج منها مثل هذا الفنان الكبير ، الذى جاء من فرنسا الى بلاد المسلمين فى بداية هذا القرن .. ليعتنق الاسلام ويكتب لابناء أوربا كتابا خطيرا عن نبى الاسلام .

هو « الفونس رينيه » الذى ولد فى باريس عام ١٨٦١ وتوفى عام ١٩٢٩ ..

هرب الفونس رينيه من اوربا كلها .. ضاق بهذا المناخ الحضارى القاتم ، واسرع ليعيش فى واحة صغيرة فى صحراء الجزائر !

وفى هذه الواحة عرف قيمة التأمل ، وتعايش مع المسلمين ..

غير انه رسم لوحة اسرع المتحف المذكور باقتنائها واسمها « غداة رمضان» .. وتسابقت متاحف أوربا على صوره الاسلامية بعد اسلامه .. ومنها متحف سيدني باستراليا ..

والفونس رينيه هو صاحب اهم واثمن كتاب عن النبي محمد باللغة الفرنسية .. والنسخة الواحدة منه كانت تباع في ذلك الزمان بخمسة جنيهات !

قبل ان يعلن اسلامه قرا كل الكتب عن كل الديانات .. لكنه كان يقول انه كان يبحث عن الصورة المشرقة للانسان .. ولم يجدها كما قال الا فى التراث الاسلامى .

وهو فى ابحاثه وكتبه عن الاسلام .. وفى صوره الزيتية عن الشرق واحداث التاريخ يرى ان الحضارة الاسلامية ، تتميز باشعتها الخاصة ، وانوارها التى لا مثيل لها ، وفى كتابه « أشعة خاصة بنور الاسلام » نراه يقول عن رسول الاسلام :

« ان نبى الاسلام ، هو الوحيد ، بين أصحاب الديانات ، الذى لم يعتمد فى تبليغ رسالته على المعجزات .. لم يعتمد الا على بلاغة التنزيل الحكيم .. » .

اذن لماذا تأخر الشرق ولماذا يسوده الجهل ..

يقول الفونس رينيه الذى اصبح اسمه بعد اسلامه « ناصر الدين » :

« ان هذه الخرافات والمعتقدات الشاذة ، التى نشاهدها فى بلاد المسلمين الآن ، ليست الا أمورا مدسوسة وهى غريبة على القرآن ودخيلة على الدين .. ويوم أن مات ابراهيم ابن رسول الاسلام حزن عليه أبوه عليه السلام حزنا شديدا ، وحدث ساعة دفنه ان كسفت الشمس فقال الذين من حول الرسول : انها لمعجزة يا محمد ، فقد شاركتك الشمس فى حزنك ..

وهنا غضب الرسول وقال : « ان الشمس والقمر آيتان من آيات الله ، لاينخسفان لموت احد ولا لحياته » .

ويرى الفونس رينيه ان على المسلمين اليوم ، أن يبحثوا عن انفسهم ، في تراثهم ، وليس في الخرافات والشعوذة .. فهذا

التراث هو الذى اقام حضارة أوربا الحديثة . وهو ليس تراث المعجزة أو السحر .. بل هو تراث العلم !.. لكن كيف انتقل تراثنا الحضارى الى اوربا ؟

من الفصل التالى من هذا الكتاب نلقى نظرة سريعة على قصة انتقال الحضارة الاسلامية الى اوربا من واقع مراجع أوربية كتبها وحققها مستشرقون أوربيون ، وعلى رأسهم دكتورة زيجريد هونكة الاستاذة الالمانية التى اصدرت كتابها الخطير « شمس العرب تشرق على أوربا » وأثارت بكتابها هذا ضجة هائلة فى صحف أوربا والكتاب ترجم فى بيروت الى اللغة العربية ويقع فى أكثر من الف صفحة مزودة بالصور التاريخية. وسنرى فى قصة انتقال الحضارة الاسلامية وفضل علماء الحضارة الاسلامية على اوربا الدليل على ان العلم والايمان لا يمكن الفصل بينهما فى الشرق الاسلامى لارتباط ذلك بقيام الحضارة نفسها !



كيف انتقلت الحضــارة الاســلامية الى أوربا ؟

قصة انتقال الحضارة الاسلامية الى اوربا قبل عصر النهضة تملأ مجلدات لا حصر لها باللغات الالمانية والفرسية والانجليزية وكل لغات أوربا حتى اللاتينية قد تناولت هذه القصة بالتفصيل ، غير ان ما يثير الدهشة والذهول ان ما كتب باللغة العربية عن هذه القصة قليل جدا ! لماذا ؟

مجرد سؤال ..

والاجابة عليه نجدها فى مقالات ودراسات ، نشرها عام ١٩٥٣ فى جريدة الجمهورية الرئيس انور السادات نفسه .. وهو الذى ينادى بدولة العلم والايمان الآن .

ماذا قال الرئيس انور السادات ردا على هذا السؤال ؟

يقول القائد الثائر ــ وذلك منذ تسعة عشر عاما ــ وهو يربط بين قيام ثورة ٢٣ يوليــو والتراث الحضارى للأمة .. يقــول الرئيس السادات :

« نحن المسلمين مقبلون على السير فى ركب الحقيقة ، وفى كنف الدين ، فاذا اردنا المدنية والعلم ، واذا اردنا الحق والعدل

والمساواة ، يجب اولا ان نبدأ ، فى بعث ثقافة الفرد المسلم ، لكى يبدأ فى شق طريقه نحو الأهداف ، التى يكافح البشر جميعا من اجلها .. هذا هو الطريق » .

لكن ما هى الثقافة فى رأى الرئيس السادات ؟

ومن هو الانسان المثقف ؟

يقول الرئيس السادات :

« الثقافة ، كما هو معروف ، هى التى تحدد مقدار وعى الفرد ومن ثم تلزمه بشق الطريق نحو المستقبل ، وفى الحدود التى تحقق مصالحه وحرياته وآماله وحقوق ومصالح وآمال الجماهير كلها » .

ثم يمضى الرئيس السادات قائلا :

« وقد يفهم القارىء ان المقصود بالثقافة ، هو التعليم فى المدارس والجامعات .. كلا ..

ان الفرق بين الثقافة والتعليم شاسع » .

لكن لابد من طرح هذا السؤال : كيف يمكن بعث ثقافة الفرد المسلم ؟

يقول الرئيس السادات وهو يرد على هذا السؤال ·

« لكى يتم بعث ثقافة الفرد المسلم ، يجب ان تكون الثقافة مستمدة أصلا ، من تاريخ المسلمين ، من نضال الملايين .. من واقعها ومصالحها ومن حضارتها ومن ادبها ، وفنها ، ثم لكى تصبح ثقافة واعية متطورة ؛ يجب ان تكون مرتبطة بثقافة ووعى البشر جميعا ..

الثقافة فى هذا العالم وحدة لا تتجزأ » .

ويمضى الرئيس السادات فيقول ، مفسرا تراث الأمة وعقيدتها :

« يساعدنا ـ نحن المسلمين ـ على بعث ثقافتنا ، وتمكينها من عقول الملايين تلك الحقيقة الناصعة ، التى تقول ان الاسلام ، هو الدين الوحيد ، الذى يحتوى الى جانب مبادئه السماوية ، مبادىء اجتماعية ، تحدد قيمة الانسان العظمى فى الحياة ، ثم تعترف بحقه فى العلم والحرية ..

فالاسلام مثلا ، لم يقل بشل نصف المجتمع ـ المراة ، وعزل نصف المجتمع عن نضال البشرية ..

لكن الكهانة تفرض على المراة المسلمة ان تولد ثم تلد ثم تموت !

أى جعلت منها الكهانة ، آلة مسيرة لا عقل لها ولا راى .. ولا حق !

فكيف يمكن اذن ان تبعث ثقافة الفرد المسلم ، اى كيف يمكن خلق نهضة المسلمين ونصف المجتمع الاسلامى ـ باسم الدين ـ يجب أن يظل بلا عقل ؟

قلت ، انه يمكن للكهانة تفسير الدين لمصلحة افراد .. لكن الاصل فى وجود الأديان كلها هو تفسيرها لمصلحة المجموع ..

فقد فسر رجال الكنيسة فى العصور الوسطى ، الدين المسيحى ، بما يتفق مع تفكيرهم الرجعى ، وبما يتفق مع مصالحهم وحبهم للسلطة والنفوذ .

ومن بين تفسيرهم لرسالة عيسى عليه السلام ، مافرضوه على المراة من حجاب وعبودية ، فتم فصلها عن المجتمع فصلا تاما ، فاذا اصيبت امراة بمرض او بوباء ، لا يسمح للطبيب بان ينقذها .. لانه رجل !!

فماذا كانت نتيجة تفسير الكهنوت لرسالة عيسى عليه السلام

ظلام ساد اوربا .. وجهل ..

وعصف بالحقوق والحريات ..

لكن بعد ان تم القضاء على الكهانة فى اوربا ، وعرف الناس حقيقة دينهم ، اصبحت المراة ـ الان ـ تعمل وتفكر ، اصبحت تتعلم وتبنى الحضارة مع الرجل ، ولا يمنعها كل هذا من ان تلد اطفالا ، هم لاشك احسن حالا من اطفال عصر الكهـــانة المظلم فى اوربا .

وتمر بخاطرى فى هذه اللحظـة تلك الصــيحة ، للشــاعر المتنبى بعد ان هاله ما فعلته الكهــانة بالناس فى بلاد المســلمين فقال معارضا :

اغاية الدين ان تحفـــوا شــواربكم

يا امة ضحكت من جهلهــا الامم ؟!

ويمضى الرئيس السادات يقول فى دراسته عن الثـــورة والاسلام :

كان العرب فى عصر نهضتهم الكبرى ، عندما اضاءوا اركان العالم بالمعارف والعلوم ، يؤمنون بأن الثقافة وحدة لا تتجزا ، فى هذا العالم ، لذلك لم يبخل العرب على غيرهم بالعلم .

وهكذا نهضت اوربا بفضل ثقافة المسلمين ..

وبعد ان نهضت اوربا ، وانبعث فيها تراث الانسانية الثقافى ، بفضل العرب ، استبدت الانانية بحكامها وطبقاتها العالية ، وايضا بمثقفيها وعلمائها ، فلم يحملوا المشاعل مثل العــرب الامجــاد ، ليضيئوا الطريق امام الشرق ، بعد ان سيطرت عليه ـ الكهانة .

لم تساهم اوربا فى بعث نهضة الشرق ، كذلك فعل الرومان أيام ازدهار امبراطوريتهم لحقدهم على الحضارة الاغريقية ، لان امبراطوريتهم ـ أى الرومان ـ كانت قائمة على السخرة والاثم ، وعلى القهر وعلى القوة والبطش .

ولم يكتب لتراث اثينا ، أن يبعث ، الا عندما حمل المسلمون مشاعلهم ، وقدموا للبشرية ذلك التراث بعد تطـويره ، فى نبل وكرم عظيمين ، وبلا تعصب أو ادعاء ومن .. !

اما اوربا ، بعد ان نهضت بفضل العرب ،فانها اتجهت لاستعمار الشرق وليس للنهوض به ، ونادى « كبلنج » المفكر الاستعمارى المشهور ، باحتــــلال الشرق واهاب بقومه ان يسرعوا الى التهام الفريسة المسلمة قبل أن تفيق من سباتها العميق .

ثم اطلق كلمته المشهورة « الشرق شرق .. والغرب غـرب ولن يلتقيا » .

وهكذا تمت جريمة اوربا .. زحف الغـرب على الشرق ، لا بمشاعل الثقافة والحضارة ، لكن بالسيف والمدفع ..!

واحتضن المستعمر الغربى الـكهانة فى الشرق ، وشـجعها وحارب رجال الفكر الاسلامى .

فدعوة جمال الدين الافغانى مثلا ، الى التحرر من الـكهانة وقوله بأن الدين ماوجد الا ليطور حياة البشر ، حسبما تقتضى الاحوال والبيئة والظروف ، والواقع ، أقول ان هذه الدعـوة الامينة المخلصة ، بددها المستعمر وطارد انصارها بمعاونة الكهانة والحكام .

حوربت هذه الدعوة ، وكل مثلها فى مصر وفى الهنـد .. فى الشرق كله !!

فجمال الدين الافغـانى يطرد من مصر .. ويتعرض انصار دعوته للبطش . ثم يطرد من الهند ، ويطرد من روسيا القيصرية عندما صاح بصيحة الحق فى بطرسبرج .

يطرد الافغانى من كل بلد ، يهبط اليه ، لانه كان يمثل فكرة التحرر من المستعمرين والطغاة واعداء الانسان ، فقد كان ينادى

البشر جميعا باليقظة ويقول ان الدين هو نضال فى سبيل التقدم والرقى والمعرفة .. وكان امثال جمال الدين الافغانى ، هم القادة المؤمنون – حقيقة – بالدين الاسلامى » .

والى هنا نكتفى بهذه الكلمات المضيئة من الدراسة التى كتبها الرئيس المؤمن الثائر أنور السادات عام ١٩٥٣ فى جريدة الجمهورية عندما كان السيد الرئيس يشرف بنفسه على أصدار الجمهورية ويقوم بعمل رئيس تحريرها ويوجه سياستها .. ويومها كان سيادته كعضو فى مجلس قيادة الثورة يكتب لتعبئة الجماهير العربية فى مصر وفى كل بلاد العرب فى معركتها الحضارية ضد المستعمر الاجنبى والصهيونية ..

كانت ثقافة السيد الرئيس انور السادات وثوريته وايمانه كل هذا قد جعل من جريدة الجمهورية فى ذلك الوقت منبرا حرا شريفا يعبر فى صدق ونبل واخلاص عن روح الشعب الذى قامت على ارضه ثورة .

ولا اجد ما اضيفه للرد على السؤال المطروح فى هذا الفصل من الكتاب عن أسباب حجب تراث الامة الحضارى عن الشعب غير ما قيل فى مؤتمر لوزان الاستعمارى عام ١٩٢٣ وعن قرارات ذلك المؤتمر التى نصت على ضرورة محاربة الفكر الاسلامى فى البلاد الاسلامية وعزل الامة العربية عن تراثها وعن مضمون حضارتها حتى يظل الشعب غافلا عن نهضته راضيا بالاستعمار الاوربى ، فهو – اى الشعب – لا يعرف ان فى ماضيه حضارة ومدنية وان فى ماضيه عباقرة عظاما استمدوا علومهم وافكارهم من آيات القرآن الكريم التى تحض على طلب العلم .. ففيه قوة للمسلمين وحماية لهم من الاعداء المتربصين بهم .

وها هى القصة المجهولة اعرضها بتلخيص شديد كما قلت وهى تروى لنا كيف انتقلت حضارة الاسلام الى اوربا ؟

.. فقد ثبت لكل مؤرخ ان علماء الحضارة الاسلامية كانوا سببا في نهضة اوربا ، فى هذا القرن العشرين .. فماذا تقول القصة ؟

خالدة هى سالرنو .. !!

من الاندلس انطلقت موجات الحضارة الاسلامية الى فرنسا على الحدود ، والى المانيا والى انجلترا .

ترجمت كتب العلماء العظام من ابناء الحضـــارة الاسلامية الى اللاتينية .. بل وصل الأمر الى رحلات قام بهـــا المسلمون الى فرنسا واقاموا هناك فى قلب فرنسا .. وفى المانيا ..

ذلك لأن اوربا فى ذلك العصر الحافل كانت مظلمة .. منكسة الراية ؛ كئيبة بالجهل والشعوذة ، وملوك اوربا لا يجيدون القراءة أو الكتابة .. فما بالك بالرعية !؟

كانت الجماهير الاوربية يجتاحها وباء الطاعون ولا يعـــرف الناس انه وباء ويعالجونه بالشعوذة لأن الشيطان فى رأيهم نفذ الى اجساد المرضى .. وهلكت الجماهير بالطبع ، لأنه لم يكن فى اوربا كلها طبيب واحد يستطيع ان يعرف ما هو المرض ، وما هى العدوى وما هو الدواء .. ولم يكن فى أوربا أى مستشفى .

وكانت الارض الأسلامية فى اوربا (الاندلس) قد امتلأت بأرقى حضارة انسانية .

فى كل مكان توجد مستشفيات ومدارس . بل وجامعات ؛ تمركزت فى عواصم الاندلس المسلم ، وجاء الى هـــذه المدارس والمعاهد طلبة من المانيا وفرنسا وانجلترا .. بعد ان نقلت قوافل التجار ، عبر اوربا ، اخبار العلوم والأفكار الاسلامية .

هكذا وضعت بذور الحضارة فى اوربا .

اما الفكر ، فلم يكن فى العالم كله آنذاك ، ما يسمى اليـــوم بالفكر الثورى غير الفكر الاسلامى .

سمع الاوربيون وهم يترددون على الاندلس اقوال رسول الاسلام وقادة الفكر الاسلامى من بعده يرددها المثقفون وعامة الناس على السواء .

« من ظلم مظلمة وقاتل وقتل مات شهيدا » .

هكذا قال نبى الاسلام ..

وهكذا حدد الاسلام على لسان النبى موقف الانسان من الحرية ..

أما الاخاء والمساواة فليس فى العالم ، حتى اليوم ، من يمكنه ان يشجب موقف الاسلام من المساواة والاخاء بأية نظرية اخرى قديمة او حديثة . والفكر الاسلامى يضع الانسان فى موقعه من الكون ، كما لم يضعه اى فكر قديم أو حديث .

وهنا لا مفر من وقفة قصيرة ..

ان المستشرقين قد أثبتوا أن الحضارة الاسلامية هى الام بالنسبة للحضارة الاوربية الحديثة . وكل علم عرفته اوربا الحديثة . جاء اليها من الاندلس ومن افريقيا المسلمة وعبر البحر الى ايطاليا وصقلية .. فالشمال الافريقى المسلم ، زحف على أوربا بالعلم والفكر والتجارة واقيم الجسر الحضارى عبر البحر بالفعل .

ولا يستطيع العقل ، مهما كان ساذجا ، ان يتصور حركة ترجمة هائلة قبيل عصر النهضة الاوربى .. من اللغة العربية اى من لغة الحضارة الاسلامية الى لغة أوربا . ثم تغفل هذه الحركة ترجمة كتب الفكر الاسلامى واحاديث رسول الاسلام واقوال الائمة والفلاسفة من المسلمين . فالحضارة متكاملة بالعلم والفكر دوما

من اجل هذا ، قامت مؤخرا مناقشة علمية حول الاصل الذى اقتبس منه « دانتي » ملحمته عن الآخرة وما بعد القيامة .

وهى الملحمة التى رفعت راية الادب الاوربى عالية ، ومنهـا كان منطلق الفن فى كثير من الاعمـال الادبية والفكرية فى أوربا .. وفى كل القارات .

لقد أثبت علماء اوربا انفسهم مؤخـرا ان دانتى لم يكن هو صاحب فكرة الملحمة ، بل انه اقتبس أضخم عمل ادبى هز العالم من قصة الاسراء والمعراج .. تلك القصة التى كان بطلها محمد بن عبد الله رسول الاسلام عليه السلام .

اذن الفكر الاسلامى ترجم مع العلوم الاسلامية بلا جدال ..

ونرى اليوم تراث الغزالى وابن رشد والفارابى . والكنـدى وغيرهم مترجمـا الى اللاتينية ومخطوطاته فى متاحف باريس ولندن وبرلين وموسكو وكل عواصم العالم .

اذن لو قلنا ان الفكر الاسلامى ، باعتباره الفكر الثورى الوحيد فى العالم خلال عصر النهضة الاوربى ، وان هـذا الفكر الثورى الاسلامى بحضارته الخالدة والمؤثرة فى تاريخ كوكب الارض ، قد جعـل أوربا حبلى بالثورات لما كنا مبالغين ، ولما كنا مدعين او مختلقين !

واذا كان شعار الثورة الفرنسية ـ وهى أم ثورات العالم فيما بعد ـ هو : الحرية والاخاء والمساواة .. فان المتأمل فى ظروف فرنسا قبل الثورة وحدودها المتاخمة للاندلس ومعايشة العـرب لاهالى أوربا وتلقى ابناء أوربا العلم فى معـاهد الاندلس وخاصـة ابناء فرنسا ـ كل هذا يجعل المؤرخ المنصف يربط بين الثـورة الفرنسية وانتقال الحضارة الاسلامية الى اوربا .. علما وفكرا !

يا اهل اوربا .. الطاعون

كانت اوربا كلها .. ظلمات فى ظلمات .. والمشعوذ والدجال هو من كبار العلماء فى البلاط الاوربى .. وفى كل مكان اوربى ..

الملك جاهل .. الوزير اكثر جهلا ، رجال الادارة والجيش والنبلاء والامراء وعامة الناس يتساوون فى الجهل .. لا احد يقرا او يكتب .. غير الساحر والدجال .

ويقول مستشرق أوربى عن ذلك العصر الاسلامى فى اوربا :

« فى عام ١٣٤٨ . اى فى اكثر الاعوام هولا وفظاعة . حيث كان الطاعون يكتسح جموع الاهالى فى أوربا ويبيدهم . نشر رجل الدولة الاندلسى المؤرخ والطبيب « ابن الخطيب » وزير سلطان غرناطة العتيد . رسالة علمية عن العدوى . وعن انتشارها نتيجة لمخالطة الناس للمرضى .. فقال ابن الخطيب فى رسالته :

« فان قيل كيف نسلم بفكرة العدوى ؟ قلنا لقد ثبت وجود العدوى بالتجربة والاستقراء والحس والمشاهدة والاخبار المتواردة . هذه هى مواد البرهان .. ان من يخالط المصاب بهذا المرض يهلك » .

وعرفت أوربا السبب فى انتشار الطاعون بعد ذلك !

اليونان والحضارة الاوربية

هكذا انتقلت العلوم البشرية من الاندلس الى أوربا فى المرحلة الاولى عن طريق طلبة أوربا فى معاهد المسلمين الاندلسية . وعن طريق قوافل التجار ، وعن طريق الترجمة المباشرة من العربية الى اللاتينية .

لكن ما هى علاقة الحضارة اليونانية ببعث الحضارة الاوربية ؟
يقول المستشرقون انه لم تكن للاغريق نظرة علمية شاملة فى حضارتهم العتيدة .. لكن تلك النظرة العلمية الشاملة لم تظهر ابدا الا بعد قيام الحضارة الاسلامية .

يقول العالم المسلم الفذ على بن عباس طبيب السلطان عضد الدولة يصف حضارة اليونان وعلومهم وهو يفتش فى مخطوطاتهم :

« اني لم أجد ، بين مخطوطات قدامى الاطبـــاء ومحدثيهم ، كتــابا واحدا كاملا ، يحوى كل ما هو ضرورى لتعلم فن الطب ، ابوقراط يكتب باختصار واكثر تعابيره غامضة ، بحاجة الى تعليق ... كما وضع جالينوس عدة كتب لا يحوى كل منها الا قسما من فن الشفاء ، ولم اجد كتابا واحدا له يصلح كل الصلاح للدراسة » .

ويعلق مستشرق اوربى على هذا الراى بقوله :

« لقـد امتازت كتب الحضـارة الاسـلامية . على اختـلاف انواعها ، بأنها موسوعات ضخمة ، جداول للطلبة فى شكل اسئلة واجوبة ، الى كتب جامعة ضمت كل معارف العصـور السـابقة والعصور الحاضرة ، كأحسن ما يكون التنظيم ، متسلسلة كأحسن ما يكون التسلسل ، ومشروحة بالتفصيل مما جعـل منها مراجع مثمرة فى متناول الجميع ولكل من يطلب العلم . وقد امتازت كتب الحضارة الاسلامية ، بروح علمى اصيل ، وعبـرت عن موهبـة منهجية منظمة ، وعبقرية خلاقة ، كانت توضح كل ما استغلق ، وتفسر كل ما غمض ، وقد شـهـد بفضـلها على بعث الحضــارة الاوربية . مؤرخ الطب الاوربى « نوبورجر » حين قال : ان علماء الحضـارة الاســلامية هم الذين أدخلوا النور والنظـام على تراث القـدماء ، ذلك التراث الذى كثيرا ما اكتنفه الغموض ونقصه التسلسل . وقد برع علماء الحضارة الاسلامية فى تقديم العلوم فى اشكال سهلة ، وصاغوا فى لغتهم الحية ، التى لم تمت فيها كلمة ، تعابير علمية مثالية » .

ويعلق المستشرق الاوربى ، على كلمـات المؤرخ « نوبورجر » بقوله :

« من اجل هذا نرى الاوربيين فى ذلك العصر البعيد ، يفضلون تراث الحضـارة الاسـلامية ، لكى يتعلمـوا فيه نظريات العلوم ، فأصبح عباقرة الحضارة الاسلامية هم اساتذة الاوربيين فى كل

شيء . أخذوا عنهم اكثر مما أخذوه من الحضارة اليونانية وكتبها الغامضة المبعثرة . فلم تكن لدى اوربا وهى تقيم حضارتها اهم من الكتب التى وضعها علماء الحضارة الاسلامية واية كتب مكنت اوربا من المعارف البشرية اصلح للدراسة والتعليم من كتب حنين بن اسحاق ، او كتاب الاصول لابن رضوان ، وكتاب تقويم الابدان « لابن جزلة » الذى صنف فيه الامراض كما تصنف النجوم فى الجدول الفلكى ، وقد سجل فيه الاسباب والعوارض والتشخيص والعلاج لاكثر من ثلاثمائة واثنين وخمسين نوعا من الامراض » .

من كل هذا نعرف ونفهم ان الحضارة الاسلامية هى التى مكنت أوربا من النهوض والمعرفة .. وليست الحضارة اليونانية كما يزعم الحاقدون والمغرضون من المؤرخين والكتاب الذين سرت فى عقولهم نغمة التعصب الاعمى ، ذلك التعصب الذى ينفى عنهم الامانة العلمية وحق التصدى للتاريخ .

وخطر هؤلاء من المزيفين يكمن فى التشكيك المستمر فى تاريخ الامة وفى تراث الامة .. حتى يفقد ابناء الامة ثقتهم فى انفسهم .. ويصبحوا فى فراغ عقلى .. ويسهل حينئذ استدراجهم الى كمين العزلة عن ماضيهم .. تلك العزلة التى سعى اليها الاستعمار الاوربى دوما ، حتى يتمكن من حكم البلاد الاسلامية . وادواته فى ذلك .. هم هؤلاء المزيفون للتاريخ .

قصة سالرنو والعرب

« الكل يعلن ... خالدة هى سالرنو بشهرتها ...
التى تلف الارض لفا .. وتشفى العليل ...
مشهورة هى سالرنو .....
بالعلم ...
انى بهذا اعترف » .

هذه كلمات الفهـا شاب من كولونيا . جاء ليـدرس الطب فى مدينة سالرنو الايطالية عام ١٦٦٢ . ثم عاد الى بلده لينشر فيها العلم .

لكن لماذا اصـبحت سـالرنو واحة للعلوم فى صـحراء أوربا المظلمة ؟

يقول المستشرقون :

« كان المرضى من الاوربيين ، اذا كانوا أغنيـاء ، يهرعون الى سالرنو طلبا للعلاج فهناك اطباء عباقرة ومستشفيات . ومن انجلترا جاء الى سالرنو « فيلهلم » الفاتح ملك انجلترا ، ليداوى جروحه التى اصابته فى الحرب . . وغير فيلهلم الفاتح كانت سالرنو تستقبل فى كل يوم النبلاء والاغنياء من كل اطراف أوربا يطلبـون الشـفاء وتحدث المعجزة على ايدى اطباء سالرنو ؟ . .

من الذى علم اطباء سالرنو فى ايطاليا العلم ؟

لقد كانت سالرنو واحة ، وسط الصحراء الاوربية ، يعالج فيها مرضى اوربا جميعا ، وهى مدينة العلم الوحيـدة . . خارج عالم الحضارة الاسلامية . . وهى المدينة التى زحف منها العلم الى صحراء أوربا فجعل منها قارة متحضرة بعد ذلك . .

لكن ما هو سر ظهور العلم فى سالرنو ؟

هو نفســه السر وراء ظهور العلم فى البلاد الاوربية المتاخمة للأندلس . .

من الاندلس انتقلت الحضارة الاسلامية الى فرنسـا والمانيـا وانجلترا .

ثم جاء دور ايطاليا . . الجسر الذى عبرته الحضارة الاسلامية من الناحية الاخرى لاوربا . . ومن شواطىء ايطاليـا بزغ النـور الحضارى الاسلامى فأضاء ربوع القارة الاوربية .

يحكى انه كان يوجد فى القرن الحادى عشر موجات متتالية من حركة ترجمة ضخمة . قام بها الرهبان وقام بها عباقرة الحضارة اللا اسلامية ممن يجيدون اللغات الاوربية .. وهذه الموجات لحركة الترجمة استهدفت نقل علوم الحضارة الاسلامية الى اللغة اللاتينية .. وكانت راية الحضارة الاسلامية عالية خفاقة امام الشاطىء الايطالى .. يراها ربابنة السفن وقوافل التجار . ويعودون باخبارها الى سالرنو القريبة من شمال افريقيا الاسلامى .

يقول مستشرق المانى عن قصة سالرنو وانتقال الحضارة اليها ثم الى اوربا :

« الشهرة الخالدة التى تدفقت من سالرنو لتلف العالم لفا فى ذلك العصر . لم تكن ثمرة تراث يونانى أو رومانى . بل ثمرة لظهور الحضارة الاسلامية . وثمرة لتراث عربى صرف حاول المؤرخون المتعصبون طمسه كحقيقة لا تقبل الجدل .. لكن المحاولة فشلت .. وعرف العالم أن حضارة سالرنو جاءت من بلاد المسلمين .. وليس هناك من يقدر على حجب نور الحقيقة » .

فما هى القصة الحقيقية ..

جاء « ليوناردو البيزاوى » نسبة الى بيزا . فنقل الى اللغة اللاتينية علوم الرياضة الاسلامية . واقبل اهالى سالرنو على الترجمة اللاتينية بنهم شديد ليتفهموا الحضارة الاسلامية .

ثم من قبله جاء قسطنطين الافريقى لينقل علوم الحضارة الاسلامية فى الطب والصيدلة الى سالرنو .. باللغة اللاتينية .

وذاعت شهرة قسطنطين الافريقى .. واصبح اسطورة ..

لقد تدفق سيل العلوم الحضارية الاسلامية على سالرنو حتى فاض وامتد الى شواطىء أوربا كلها ومدنها وعواصمها .. فغمرتها

موجات الحضارة الاسلامية بعد حركة الترجمة النشيطة من اللغة العربية الى اللاتينية ، ويقول المؤرخون ان قسطنطين الافريقى هذا تمتع بشهرة عظيمة الشأن ، لقيامه بترجمة العلوم الاسلامية ، وكانت شهرته تفوق شهرة ليوناردو البيزاوى الذى فعل مثله .. ونقل علوم الحضارة الاسلامية الى ايطاليا ثم الى كل أوروبا ..

فمن هو قسطنطين الافريقى ؟

يقول المؤرخون :

فى احدى مدن شمال أفريقيا الاسلامية .. وهى مدينة قرطاجنة وفى عام ١٠٢٠ ميلادية ، ولد طفل لا يعرف أحد أكان مسيحيا ام مسلما .. ولم يعرف أحد اكان عبدا أم من الاحرار . المؤرخون يجهلون نشأته ، غير انهم سرعان ما عرفوا أنه عاش فى الشرق الاسلامى فى صباه . وانه كان شغوفا بمطالعة كتب العلوم الاسلامية . واشتغل بتجارة العقاقير ، من هنا عرف الاطباء المسلمين وكانت له بهم علاقات صداقة وجلسات علم .

وكان قسطنطين الافريقى ينتقل فى شمال افريقيا بحكم عمله كتاجر عقاقير .

وبحكم هوايته لترجمة العلوم الاسلامية استطاع ان يعرف دوره فى التاريخ الحضارى للبشرية كلها .. ومضت الأعوام ..

وهو فى الاربعين من عمره ، خرج لاول مرة الى الشاطىء الاوربى . قام برحلة الى صقلية وكانت جزيرة تحمل سمات العرب حين فتحها المسلمون فى صدر الاسلام وفى سالرنو التقى قسطنطين الافريقى بشقيق أمير سالرنو .

وسمع الامير من التاجر الافريقى قصة العلوم الاسلامية وعبقرية الاطباء العرب فى قرطاجنة وغيرها من بلاد المسلمين وكان يهوى علم الطب والصيدلة .

وطلب منه الامير ان ينقل هذه العلوم الى سالرنو ..

وهنا يشتد طموح قسطنطين الافريقى فيقرر دراسة الطب حتى يتمكن من نقل علوم الحضارة الاسلامية بفهم أكثر فماذا فعل ! واين درس الطب ؟

كانت مصر قلعة حضارية من قلاع الحضارة الاسلامية .. وكانت فيها بارماستانات اى مستشفيات واطباء عباقرة يقومون بتدريس الطب فى تلك المستشفيات .

وجاء قسطنطين من سالرنو الى مصر .. وتعلم الطب فيها رغم أنه كان فى الاربعين من عمره .

وقضى فى القاهرة سنوات .

ثم عاد الى سالرنو بعلوم الحضارة الاسلامية وبكتب الحضارة الاسلامية .. ليعيش بين الجبال فى هدوء .. ليترجم الى اللاتينية كل ما استطاع أن يحصل عليه من العلماء العرب فى مصر .. ومن كتب عباقرة الحضارة الاسلامية .. من امثال الرازى وابن سينا وجابر بن حيان .. وغيرهم وغيرهم ..

وكان يعاونه فى الترجمة من اللغة العربية الى اللاتينية راهبان هما « آتو » و « يوحنا » . وانتقل قسطنطين الافريقى الى مونت كاسينو فى ايطاليا ليكمل دوره التاريخى فى نقل علوم الحضارة الاسلامية الى أوربا .

ثم اصبح قسطنطين الافريقى اشهر انسان فى أوربا قاطبة فى ذلك الزمان .. حتى قيل انه من السحرة .

تلك قصة واحدة من قصص الحضارة الاسلامية وكيف انتقلت الى اوربا .. وتأتى بعد ذلك قصة فريدريك الثانى .. وهى من القصص المعروفة التى تشرح كيف انتقلت الحضارة الاسلامية الى اوربا فبعثت فيها العلم والنور واتاحت لاوربا ان تصل الى العصر الذرى !

ها هو الغرب يلتقى بالشرق ، رغم شعار كبلنج الاستعمارى وأى لقاء ، كما قال الدكتور هيكل فى كتابه عن الشرق الجديد ؟؟

انه لقاء الحضارة ..

الشرق الاسلامى يقدم لأوروبا المظلمة مشعل النور والحضارة بلا تعصب او استعلاء ..

كانت رسالة خاتم الانبياء تنادى بطلب العلم ونشر العلم والاخوة والمساواة والعدل بين البشر جميعا ، ولافضل لعربى على عجمى الا بالتقوى .. اى بالعلم والايمان ..

وكما قال الرئيس انور السادات فى دراسته القيمة عن التراث منذ تسعة عشر عاما ، من ان اوربا التى تلقت دروس العلوم والمعارف فى الطب وفى الهندسة والفلك والرياضيات بصفة عامة وفى الصيدلة وفى الموسيقى وفى الفلسفة وفى كل علم بشرى على ايدى علماء الحضارة الاسلامية .. اوربا هذه تأتى الى الشرق الاسلامى بعد ذلك بقرون تحمل السيف والمدفع لتقهر شعوب الشرق المسلم وتمنع عن سكانه نور العلم وتمنع شعوبه من بناء الحضارة .. بل وتنسج مؤامرتها الحقيرة المخيفة لتعزل شعوب الامة الاسلامية التى وقعت فريسة لاستعمارها عن تراث الحضارة الاسلامية وتمنع التعرف على عباقرتها باى ثمن حتى لا تظهر .. روح الطموح الحضارى بين ربوع البلاد الاسلامية فتظل خاضعة لجبروت المستعمر واطماعه ..

ما اعظم الفرق .. بين حضارة تقوم لنفع البشرية جمعاء وهى حضارة الاسلام ، وبين حضارة تقوم لقهر البشرية جمعاء وهى حضارة أوربا ! !

ماذا يقول التاريخ عن ذلك ؟

قبل ان نخوض فى بحر التاريخ ، نسجل هذه القصة .. قصة بابا روما .. ذلك الذى كان يعرف قيمة الحضارة

الاسلامية .. وكيف استفاد من هذه العلوم الاسلامية فى قيام الحضارة الاوربية .. كيف بدات قصة بابا روما ؟

والقصة منقولة من المراجع التاريخية وليس لى غير صياغة النصوص التاريخية فى هذه القصة باسلوب يسيغه قارىء هذه الايام ..

تقول قصة بابا روما الذى عرف قيمة الحضارة الاسلامية .

بداية معجزة ..

ها هو فارس نبيل اوربى مهزوم ، مزقت جيوشه سيوف المسلمين فى الاندلس .

معركة بعد معركة والكونت « بوريل البرشلونى » يواجه الهزيمة ويتمزق جيشه ويندحر !.

ها هو مثل كل امراء اوربا المهزومين فى الاندلس ، يسرع بارسال الوفود الى قرطبة يطلب الصلح من المسلمين .

ونكست راية بوريل فوق ارض الاندلس .. وعاد الكونت ذليلا يجر من خلفه اللعنة . !

ومع ذلك .. كانت عودة الكونت بالهزيمة ، ورايته منكسة ، بداية لمعجزة حضاريةفيا العجب ! !

اهو القدر اذن ؟ نعم والا فما معنى ان يعود الكونت مهزوما ، ويخترق طريقا صعبا عبر جبال البارانس ، ليهرب من فرسان المسلمين ، وسيوفهم المخيفة ، لكنه يفكر وهو يسرع بالهرب فيما سمعه عن انسانية امراء الاندلس المسلمين والشهامة والنبل والعقل الراجح المستنير .. وحبهم للسلام .. لماذا لا يرسل اليهم اسقفا ، ويطلب السلام ..؟

واعطى الكونت الاشارة .. قفوا يا فرسان اوربا .. سوف نعسكر هنا بجوار هذا الدير .. ونرسل الى الامير المسلم نطلب منه العفو والغفران ، ونتوسل اليه أن يسحب جيوشه الجبارة التى تهدد حدود برشلونة .. والاسلام دين عفو وسلام ..

وكان الكونت يعلم ان المسلمين يحترمون الرهبان ، ويرحبون « بالرهبان » فى اى مكان .. ويستقبلونهم بود وحب .. !

الاسقف فى بلاد المسلمين

ونادى الكونت باعلى صوته : اين الاسقف هاتو .. ليسرع بالمجىء فى الحال ..

وجاء الاسقف « هاتو » .

وكان راهبا جليلا مثقفا ، قرا كتب علماء الحضارة الاسلامية واصبح عقله متفتحا الى المعرفة والحضارة ..

وكان راهبا وهذا هو المهم ..

والقرآن نادى باحترام الرهبان ..

ولم يشهد تاريخ الديانات منذ عرف البشر الاديان ، حبا واحتراما بين دين وآخر ، مثل حب المسلمين واحترامهم لكل راهب متعبد فى ديره .

وكانت الاندلس ، ملأى بالاديرة الى جوار المساجد .. وكانت الكنائس تقرع اجراسها ويمتزج صداها باصوات المؤذنين فوق المآذن .

الجميع اخوة .. لا يفرق بينهم الا امثال هذا الكونت الراغب فى النفوذ والسلطان والجبروت !

حدث هذا كله عام ٩٤٥ ميلادية ، اى منذ اكثر من الف عام .

ووصل موكب الاسقف « هاتو » الى قرطبة ، حيث مقر الامير المسلم الحكم الثانى ، وكان الاسقف يرفع راية السلام ؟ ولقى استقبالا حافلا فى بلاط قرطبة .

ثم اقبل عليه الامير مرحبا ، فى ود فائق ، وتكلم الاسقف بلسان الكونت بوريل ، الكونت ايها الامير المسلم يطلب الصفح ويطلب السلام ..

ورد عليه الامير :

« وان جنحوا للسلم فاجنح لها .. » صدق الله العظيم ..

وهكذا وجد الاسقف هاتو ما كان يتمناه .. وجد السلام ... واصدر الحكم الثانى اوامره بسحب جيوشه من على حدود ارض الكونت بوريل ..

وفى قرطبة عاش الاسقف هاتو اياما رائعة ، وكان لدهشته يرغب فى البقاء يوما آخر ثم يمد اقامته اياما اخرى وكان ما يراه فى قرطبة يثير عجبه وذهوله !

والجميع يرحبون به .

فماذا راى « هاتو » فى قرطبة ؟

وهو الراهب القادم من بلاد لا حضارة فيها ولا مدنية .. بل ظلام وهمجية وبربرية .. ؟

راى فى بلاط الحكم الثانى علماء الكيمياء والرياضيات والفلك .. رأى اطباء جراحين .. ورأى صيادلة .. بل كان ذهوله مضاعفا حين زار مستشفيات قرطبة .

اطباء قرطبة حول اسرة المرضى يعالجونهم بالمجان .. ويمنحونهم مساعدات مالية بعد الشفاء ، حتى لا يعملوا فى فترة النقاهة .. !

وفى اوربا يموت المرضى فى الطريق . واهم من هذا ـ ويا للعجب ! ـ راى القضاة والعلماء والفلاسفة من المسيحيين فى قرطبة .. يعملون جنبا الى جنب مع المسلمين ! ..

بل راى اليهود يمارسون كل الاعمال بحرية !

يتكلمون بالعربيـة ويتسامرون فى ندوات مهيبـة مع علمـاء قرطبة من المسلمين .. ويتبادلون المعارف !.

الاديان كانت تتعانق فى قرطبة .

وامتلأت راس الاسقف « هاتو » بفكرة محددة عن العـرب والمسلمين . انهم اهل علم واهل حضارة .. انهم اساتذة لهـذا العالم من اقصاه الى اقصاه . فلم ير هاتو مثلهم ابدا !

وعاد بفكرته الجـديدة الى الكونت بوريل .. يروى حكايات مثيرة مذهلة عن علوم المسلمين وحضارة المسلمين فى قرطبة ..

لقيط امام الدير

كان الكونت يعسكر بجنوده حول دير « اورياك » ينتظر عودة « هاتو » .

كان يزور الدير ليطلب من الرهبـان الدعاء ان تكلل مهمـة « هاتو » بالنجاح .. ويعود بالصفح والسلام من قرطبة .

وفى الدير راى الكونت شابا صغيرا فى العشرين من عمره يبدو عليه الذكاء والتفتح ، حديثه مرتب وكلماته مختارة ، لا تصدر الا عن عقل مجرب لرجل فى الاربعين ..

وسأل الرهبان عن قصته .. فقد اعجب به ..

وكانت قصة مثيرة .. فهذا الشاب كان لقيطا .. عثر عليه الرهبان ذات صباح امام الدير منذ عشرين عاما .. وتبنوه .

ولا يعلمون من أين جاء .. واطلقوا عليه أسم « جربرت »

وطلب الكونت من رهبان الدير السماح لهذا الشاب الذكى ان يلحق برجاله .. وقبل الرهبان بعد الحاح من الكونت .

واصبح « جربرت » ربيبا للكونت بوريل .. وعهد الكونت به الى الاسقف « هاتو » ليعلمه ..

وبدات قصة حضارية مهيبة .. منذ ذلك التاريخ .

ان جربرت يجلس طوال النهار امام استاذه « هاتو » يستمع الى قصة قرطبة .. وماذا فى قرطبة ؟

فى قرطبة حضارة ياجربرت .

وعشق جربرت العرب وعلومهم كما يقول المستشرقون .

ومضت سنوات . كان جربرت ، الفتى اللقيط ، قد تعلم من استاذه « هاتو » ما لم يكن فى قدرة أحد ان يفعله فى كل أوربا .

ان هاتو امتلات راسه بعلوم وفلسفة الحضارة الاسلامية .. وكتب الحضارة الاسلامية المترجمة الى اللاتينية قد حملها معه وهو عائد الى بلاده من قرطبة .. !

وقرا جربرت تلك الكتب وعرف اسرار العلوم الاسلامية وعشق الفكر الاسلامى ولم يكف عن طلب العلم حتى بعد أن اصبح من العلماء .. ولا يوجد علم فى ذلك الزمان الا فى كتب العرب .

نعم الطفل اللقيط يدخره القدر ليلعب دوره فى تاريخ الانسانية .. وأى دور ؟

اللقيط جربرت سيصبح اسطورة يرددها جيل وراء جيل فى كل مكان من القارة من روما حتى انجلترا والمانيا .

وفى كل أرض أوربية !

وراء تلك الاسطورة ، ووراء هذا اللغز الذى حير اوربا ، وأذهل روما ، رحلة قام بها اسقف اسمه هاتو الى قرطبة .

حيث قامت حضارة الاسلام .. ثم عاد منها الى اوربا بكتب علماء هذه الحضارة .

ونحن الآن فى عام ٩٧١ ميلادية ، وجربرت قد اصبح على ابواب الاربعين من عمره .. وها هو فى صحبة الكونت بوريل واستاذه الاسقف هاتو فى رحلة الى روما ..

وفى روما التقى العالم الفذ جربرت بالقيصر « اوتو الاكبر » وباسرة القيصر وبنبلاء روما .

واثار جربرت عاصفة من الاعجاب الفائق بعلمه وثقافته فى بلاط القيصر خلال الايام الأولى منذ وصل الى هناك ..

وبدأت روما كلها تتحدث عن جربرت .. ذلك القادم عبر جبال البرانس مع الكونت بوريل والاسقف هاتو ..

انه ساحر .. انه يسخر الجن .. انه ليس من البشر !

هكذا فسر اهل روما العلم .. ونظرياته .. تلك التى عرفها جربرت من كتب الحضارة الاسلامية فى الاندلس !

وأصدر القيصر قرارا بتعيين جربرت مستشارا له ، ثم اصدر بعد ذلك أمره بتعيين جربرت كبيرا للاساقفة !

وماذا بعد ؟

هل تقف اسطورة جربرت عند هذا الحد .. كلا .. ان القدر قد ادخره لدور اكبر من ذلك كثيرا .

ها هى الاسطورة تتحرك بسرعة مذهلة ..

ها هو القيصر وقد اقتنع بأن الاسقف جربرت لا يدانيه احد فى العلم ولا فى المعرفة يصدر امره بان يرتقى جربرت كرسى البابوية .. !

اصبح جربرت بابا لروما تحت اسم « سلفستروس الثانى » .

كان ذلك فى عام ٩٩٩ ميلادية .

وترددت فى روما حكايات عجيبة عن البابا سلفستروس الثانى ..

وكلها اساطير ينسجها خيال الشعب ، اذا عجز عن تفسير حقيقى لمسألة ما .. يحدث هذا فى كل عصر .. وفى كل مكان !

قالوا عنه انه كان يطير ليلا ، من قصر البابوية فى روما الى بلاد الاندلس « اسبانيا » ليتلقى المعرفة على أيدى العرب هناك .. واهم تلك العلوم .. علوم الفلك .. ثم يعودالبابا طائرا بجناحين من اجنحة الملائكة الى روما .. !

وقال أهل روما ..

اسمعوا .. البابا يسخر الجن .. تعلم تسخير الجن من العرب . خلال رحلاته اليومية بجناحين الى اسبانيا .. حيث العرب هناك .

وقالوا فى روما ..

اسمعوا .. ان البابا رهن قلبه لدى الشيطان ..

ومضت الاساطير عنه تترى وفى كل يوم أسطورة جديدة .

لقد اثار سلفستروس الثانى حيرة الجميع فى أوربا .. لأنه كان ينادى بالعلم .. وكان ينشر معارفه عن الرياضيات والفلك على الجميع .. وكان ينادى بترك الحروف الرومانية واستبدالها بالارقام التسعة العربية ونجح فى ذلك ..

وكان البابا سلفستروس الثانى هو أول عالم فى اوربا تعلم الحساب بالحروف العربية ، وعنه أخذ جميع علماء أوربا بعد ذلك .. حين عرفوا الصفر العربى وتغيرت نظرة اهل اوربا للعلم .. ولم يصبح العلم من صنع الجن أو المردة او من فعل السحرة ..

ولم يعد العلم بمعزل عن رجال الدين ولا معاديا لرجال الكنيسة !!

كانت روما كلها تستمع الى سلفستروس الثانى وهو يصرخ فيمن حوله .. محتجا على هذا الجهل الرومانى .

لماذا كل هذا الجهد وكل تلك الاكوام من الحجارة ، التى تجعل العمليات الحسابية معقدة عسيرة الفهم ، الا يكفى يا أهل روما أن تكتبوا بالارقام العربية .

اكتبوا يا اهل روما خمسة فى خانة الآحاد .. وستة فى خانة العشرات لتقراوا بسهولة .. خمسة وستين !! هكذا انتقلت الحضارة الاسلامية الى اوربا .. وبعد أن كانت اوربا لا تقدر على الجمع والطرح .. الا اذا جاء الواحد منهم باكوام من الحجارة .. أو قطع الزجاج .. ليضعوا فى خانة الآحاد حجرا ..وفى خانة العشرات حجرا .. ثم يلقون بعديد من الحجارة على لوح الحساب .. ويمضى الوقت حتى تتم عملية جمع او طرح صغيرة ! ! .

والفضل كله يعود الى جربرت .. او سلفستروس الثانى بابا روما .. الذى عاش على حدود الاندلس .. وتعلم من كتب الحضارة الاسلامية !.

تلك كانت قصة بابا روما .. ومن سطورها نعرف ان روما تلك العاصمة التى كانت تحكم العالم أو نصف العالم المعروف فى الزمان القديم لم تعرف النور والعلم والحضارة الا من تراث الحضارة الاسلامية وان القياصرة ورجال الدين فى روما المسيحية عرفوا قيمة الحضارة الاسلامية وعرفوا فضل علماء وعباقرة هذه الحضارة على البشرية واعترفوا بذلك ونشرت كتب عديدة فى اوربا فى هذا القرن العشرين تعترف بأن الحضارة الاسلامية هى الاصل وهى السبب فى حضارة اوربا فى القرن العشرين .

لكن هناك سؤال ..

لماذا حجب عنا نحن المسلمين والعرب فى بلاد الشرق الاسلامى كل شىء عن هذه القصة العظمى الثابتة فى سجلات التاريخ ؟؟.

ما هو السبب .. اهو الحقد الاوربى .. والنوايا الاوربية تجاه الشرق ؟ ؟

لنقرا التاريخ لنعرف اين نحن من التراث ، ولماذا اصبح تراثنا مفقودا ؟؟.

انتصار صلاح الدين .. ومعناه

تقول مراجع التاريخ الحديث أن قصة حجب تراث الامة الاسلامية وقصة حضارتها بدأت مع انتهاء الحروب الصليبية .. كيف ؟ ؟ .

انتصار صلاح الدين كان السبب فى كل هذا الذى حدث : ان أوربا حاقدة على ذلك الفارس العربى العظيم والمفكر الانسانى الذى ضرب المثل ، فهو فى الحرب لم يهزم ، وهو فى السلم انسان متحضر يؤمن بالانسانية ولا يأكل لحم أخيه الانسان ..

وها هو القائد الفرنسى فى الحرب العالمية الاولى ، اى منذ خمسين عاما ، يطلق صيحة الفرح والبهجة بعد احتلال الشرق العربى وتقسيمه بين دول أوربا المنتصرة ، فيقول مناديا روح صلاح الدين : « ها قد عدنا يا صلاح الدين » .

ان « جوروا » الفرنسى الذى امتلأ قلبه بالحقد الاسود على تاريخ الامة العربية المشرق ، لم يستطع ان يكتم فرحته ، فاطلقها عالية ، ليعبر عن أحقاد أبناء أوربا جميعا .. وهو يخاطب روح بطل عربى مات منذ قرون .

لكنه ذلك القائد الذى هزم أوربا .. ووضع رؤوس فرسانها النبلاء والرعاع معا فى التراب بحد السيف .. فهو الذى حطم جيوش الصليبيين فى حطين ، وهو الذى حرر بيت المقدس فى ليلة الاسراء عام ١١٨٧ ميلادية .

ان قصة الحروب الصليبية معروفة .. وتحرك جيوش ملوك أوربا ونبلاء أوربا نحو الشرق ، كان هدفه ابادة هؤلاء الذين رفعوا راية الحضارة والمساواة الانسانية .

وفى كتاب قصة الجنس البشرى للمؤرخ الاوربى « هندريك فان لون » يتحدث المؤلف عن تلك الحروب فيقول « ان الامبراطور اليكس ، استنجد بالصليبيين لحماية القسطنطينية من خطر المسلمين ، وعندما بدأ القتال ، كان الصليبيون يشعرون بالكراهية نحو المسلمين ، ثم فجأة تغيرت مشاعرهم ، وامتلأت صدورهم بالكراهية نحو الروم فى دولة بيزنطة ، فقد كان الروم يخدعون شعوب اوربا ، ويضللونهم ، بل كانوا ينحرفون عن تعاليم المسيح عليه السلام ، بعكس المسلمين ، الذين كانوا يحترمون المسيح ودعوته ، ويتميزون بالسماحة نحو الأديان ، ولاحظ الصليبيون كما يقول المؤرخ ، أن المسلمين لهم خصال تثير الاعجاب ، فهم أمناء وشرفاء ، واصحاب مروءة ونجدة ، والحق أن الحروب الصليبية ، التى بدأت فى صورة حملة تأديب الاتراك السلاجقة .. أصبحت منهجا ثقافيا عاما يعلم الملايين من شباب أوربا معنى الحضارة » .

هذا ما قاله مؤرخ أوروبى انصف المسلمين .. وكشف عن زيف الصليبيين .

فاذا جاء الاستعمار الاوربى ، وفرض بقواته المسلحة السلطة الاجنبية ، على بلاد المسلمين بعد ذلك انطفأت شعلة الحضارة الاسلامية ، امام رياح المستعمر الاوربى الذى اراد تحطيم روح

الامة الاسلامية ، واضعافها حتى لا تبعث تلك الحضارة من جديد ..

وكان الاستعمار الاوربى ، يبذل كل جهده لعزل شعوب الشرق عن التراث العظيم لأمتهم . وكان هم الاستعمار الاوربى فى بلاد الشرق العربى والاسلامى ، عزل الفكر والعقيدة المحمدية عن الحياة الانسانية فى تلك البلاد .. فالمجتمع الاسلامى يجب فى راى اوربا ان يظل بلا عقيدة وبلا راية محمدية .

والقاء نظرة على وثيقة شروط الصلح مع تركيا فى مؤتمر « لوزان » عام ١٩٢٣ ، وهى وثيقة معروفة ، يوضح لنا المخطط الاستعمارى فى بلاد المسلمين بالذات ..

وفى هذه الوثيقة تقرأ تلك الشروط المعروفة بشروط « كيرزون » وهى :

أولا : قطع كل صلة بالاسلام ..

ثانيا : الغاء الخلافة الاسلامية ..

ثالثا : اخراج انصارالفكرة الاسلامية من البلاد ..

رابعا : وضع دستور جديد .. لا علاقة له بالاسلام ..

ويقول « لورانس براون » : « الخطر الحقيقى على اوربا كامن فى نظام الاسلام وفى قدرته على التوسع والاخضاع ، وفى حيويته . انه الجدار الوحيد فى وجه الاستعمار الاوربى » .

وقد نادى « لورانس براون » بضرورة تمزيق وحدة الأمة العربية ، لأن اتحاد المسلمين فى رايه هو الخطر الحقيقى الذى يهدد الاستعمار . اما اذا بقوا متفرقين فانهم يظلون حينئذ بلا قوة وبلا تاثير ..

ان اول دعوة لتحطيم وحدة العرب ... هى الدعوة التى عدم الاهتمام باللغة العربية الفصحى ...

ان اللغة العربية فيها قوة سحرية فيما يبدو ، فهى تخيف المستعمرين ، لأنها قادرة على توحيد الامة فى بوتقة افوية وبلسان عربى يخاطب القلب .

وقد اكتشف المستعمرون قدرة اللغة العربية ، على توحيد الامة ، لأنهم عرفوا ان « القرآن الكريم » قد استطاع أن يحفظ تلك الوحدة فى الامة العربية طوال قرون ، رغم اختلاف اللغة والجنس ايضا ..

وقد نجح المستعمرون فى تمزيق الأمة .. ونجح عملاؤهم الصهاينة بعد ذلك .. لكن ماذا يتوهمون .. واين هم هؤلاء المستعمرون الآن ؟ .

نعم .. لا زالت اسرائيل خنجرا فى قلب الأمة العربية ، لكن ذلك الخنجر سوف يقتلع ويغمد فى صدر الصهيونية نفسها .. ان عاجلا او آجلا ..

فروح الأمة تهزم كل المعتدين .. على مدى التاريخ ..

لقد أطفأت اوربا مشعل الحضارة فى بلاد الشرق ، ثم اطلقت اقلام المستشرقين والمبشرين والسنتهم ، فى بلاد الشرق لتعلن فى قحة وفى ادعاء ، أن سبب هذا الجمود فى المجتمع العربى ، سبب كل هذا الجهل والتأخر ، ليس الا عقيدة الاسلام ! .

ونسوا أن حضارة المسلمين يوم أن كانت للراية المحمدية شأنها فى التاريخ البشرى ، هى الحضارة التى اضاءت اوربا المظلمة المتأخرة الجاهلة بالعلم والمعرفة والنور !!.

ولا اجد اقوى من هذا الكلام الذى كتبه الدكتور محمد حسين هيكل عن هذا الجمود والتأخر فى بلاد الشرق الاسلامى ، فالدكتور هيكل يكشف عن سر المأساة وعن خداع الرؤية الذى وقع فى بلاد المسلمين بعد أن بهرتهم حضارة اوربا . التى زحفت على الشرق اخيرا ..

يقول الدكتور هيكل وهو يفسر اذعان الشرق واستخذاءه !

« لأن نظام الحكم ، ولأن الحياة الاجتماعية فى هذه الشعوب الاسلامية والشعوب الشرقية ، كانت قد وصلت من الجمود حدا مؤسفا ، ورات هذه الشعوب فى الحياة الجديدة ، الوافدة عليها من اوربا ، صورة تحطم من قيود الجمود ، وترد الى الانسان حظا من الحرية ، يجعل للحياة قيمة لم تكن لها ، ومهما تكن الحرية التى جاء بها الاوربيون الى الشرق ، متجهة الى الحياة المادية اكثر من اتجاهها الى نواحيها الفكرية والمعنوية فان كل قدر يحطم من الجمود ، يبعث فى النفس الرجاء فى نعيم الحياة .. فاذا اتاح الاعتداء ، على سيادة الدولة ، ان يرى ابناؤها افكارا جديدة يستريح اليها العقل ، واذا أتاح هذا الاعتداء أن يعبر الانسان عن فكره بحرية ، لم يكن يعرفها واذا أتاح للانسان ان يعيش حياة مادية اكثر رخاء ، واذا بعث الامل فى تحطيم قيود الجمود قيدا بعد قيد ، اذا أتاح الاعتداء على سيادة الدولة هذا كله للأفراد ، نسى الأفراد الدولة وسيادتها ، وبخاصة اذا كان نظام الدولة اوتقراطيا بشع الاستبداد كما كان الشأن فى تركيا .. وكيف ياترى تدافع الشعوب عن سيادة الدولة اذا كانت هذه السيادة .. ستارا للعسف والظلم والقضاء على صورة الحرية جميعا ، اما اذا اصبحت الدولة ممثلة للشعب كما يجب ان يكون اتجهت جهود الشعب لاستكمال سيادة الدولة وحريتها .. وتضافرت الجهود لاقامة استقلالها ومجدها » ..

كان الدكتور هيكل يتحدث عن تيارات المستعمرين فى بلاد الشرق ...

ثم ينتقل الدكتور هيكل الى صميم القضية التى يناقشها فيقول :

« كان من اثر هذا التطور فى حياة دول الشرق وشعوبه وتوجهها نحو الحياة الاوربية تنسج على مثالها ، ان بدات

البعثات التعليمية الاوربية ، تفد الى الشرق وتستقر به ، وكانت هذه البعثات التعليمية بدء الغـزو الصـحيح ، وكان ذلك تقدير أوربا لها فما دام الشرق يقبل على الحياة الغربية فليهيىء الغرب لأبنـاء الشرق أسـباب مجالاتها ـ اى لحيـاة اوربا ـ وليجعل التعليـم وسيلته الى ذلك ، وكانت هـذه البعثات الاوربيـة ـ التعليمية ـ والتى جاءت الى الشرق بعثات دينية كلها .

لماذا اقبلت تلك البعثات فى ظـل الاستعمار الاوربى الى الشرق ..

يقول الدكتور هيكل :

« كانت هذه البعثات غزواً سياسيا منظمـا ، وجهتـه أوربا للشرق »

ثم بدأ تزييف تاريخ الشرق ، حتى تضعف الهمم وتستسلم للغزو الاوربى ..

ان تزييف التاريخ فى الشرق جعل الناس ينظرون الى أوربا ، كمـا ينظر التلميذ للاستاذ .. فى خشوع واكبار .. وهـذا ما ارادته اوربا للشرق .. ولأبناء الشرق ..

وقد ارتفعت فى أوربا أصـوات عالية بهذه الحقيقة عن تزييف التاريخ .

ولنترك ما سجله الدكتور محمد حسين هيكل عن هـذا التزييف ، لننتقل الى قصة أخرى بطلها فنـان أوربى عظيم .. ارتفع صوته بالحقيقة منذ خمسين عاما .. وهى قصة الفونس دينيه .. الرسـام العالمى وهو فرنسى عاش فى باريس وسط مناخ حضارى حديث ومع ذلك لم يجد الفنان الفرنسى فى هذا المناخ الحضارى الحديث الا ظلاما عقليا وبداية لانهيار فكرى وعقائدى محتوم ..

كيف ؟؟.

ها هو يفتح عقله للمعرفة .. وبدأت قصة خطيرة من قصص التاريخ العجيبة .. المثيرة !.

ماذا تقول القصة ؟؟

قصة هؤلاء الذين انصفوا الحضارة الاسلامة والتاريخ الاسلامى ؟.

البحث عن الحقيقة

ان الكثيرين من المستشرقين ، انصفوا الاسلام ، والثقافة الاسلامية .

منهم المفكر الانجليزى « بريفوت » فى كتابه .. « تكوين الانسانية » .. يقول :

« العلم هبة عظيمة الشأن جاءت بها الحضارة العربية ، على العالم الحاضر ، وفى القرن التاسع تعلم الاوربيون عند علماء الاسلام .

ان رئيس دير « كلونى » رأى أثناء اقامته فى الاندلس الطلبة من فرنسا والمانيا وانجلترا ، يردون أفواجا ، الى المراكز العلمية العربية ، ولم تكن ايطاليا مهدا لحياة اوربا الجديدة ، بل كانت اسبانيا الاندلس ...

لان أوروبا فى ذلك الوقت كانت قد بلغت أشد اعماق الجهل والفساد ظلمة ، بينما العالم العربى ، بغداد والقاهرة وقرطبة وطليطلة ، كانت مركز الحضارة والنشاط العقلى ، ومن ثم ظهرت الحياة الجديدة ، التى نمت فى شكل ارتقاء انسانى جديد » .. هذا ما قاله بريفوت عن الاسلام .

ونعود الى قصة الفنان الرسام العالمى « الفونس رينيه » الذى أعلن اسلامه وجاهد بعد ذلك ، فى سبيل بعث الثقافة الاسلامية منذ خمسين عاما .

كيف بدأت انطلاقة الفونس رنيه العقلية .. ومن أين ؟

تقول القصة ..

بدأت انطلاقة الرسام رينيه نحو البحث عن الحقيقة ، فى هذا العالم التعس ، من خلال قراءاته عن تاريخ الحضارات .

والمقارنات التى بدا بعدها ، خلال تلك الدراسات فى فرنسا تلك المقارنات بين الافكار والنظريات العلمية والفكرية .. عبقريات اوربا ها هى أمامه ..

وعبقريات الحضارة الاسلامية .. ها هى ايضا امامه ، على صفحات التاريخ .

من هو مؤسس علم الكيمياء ؟

اليس هو « جابر بن حيان » ثم العبقرى الفذ « الرازى » ؟ .

وغير ذلك من العبقريات .. فى الفلك .. فى الرياضيات .. فى الطب .. فى الصيدلة .. فى العلوم كلها .. عباقرة الاسلام هم العمالقة .. حتى فى العقيدة والفكرة !

ان بطل اوربا ـ كما يقول الفونس ـ والنموذج الاعلى لشعوب اوربا ، « سانت لويس » ، كان خصمه صلاح الدين الايوبى ارفع منه قدرا ، فى الحضارة وفى الشجاعة ، وفى معاملة الخصوم .

هكذا اكتشف الفونس حقائق التاريخ الانسانى .. ثم ماذا ؟

جاء الهبوط بعد العلو والرفعة .. كيف ساد الركود بلاد المسلمين ؟

واكتشف الرسام العالمى السبب ..

فقد اشتغل بالكتابة والتاليف ، وهجر الفرشاة والالوان ..

فالكلمة هى سلاح العقل ، فى الثقافة الاسلامية ..

فماذا اكتشف الفونس فى بحثه عن أسباب الهبوط والركود فى بلاد المسلمين ؟

يقول الفنان الكبير : « ان عنصرين من عناصر الشر ، يتالبان على الاسلام ، ويهاجمانه فى عرينه ، وهما الاستعماريون ورجال الدين المتعصبون .. ولا بد ـ كما يقول الفونس ـ لتكون نصرة الاسلام كاملة من أن يتجه المسلمون الى مقاومتهما . اى الاستعمار .. وتجار الدين !

تلك كانت خلاصة افكار الرسام الفرنسى ، الذى اعلن اسلامه وناضل فى سبيل بعث ثقافة الاسلام .

لقد عرف الطريق .. ونبه اليه !

فالاستعمار يسعى لتنكيس راية الحرية وقتل الهمم ، بين شعوب البلاد الاسلامية وذلك بحجب الثقافة الاسلامية عن الشعوب . وتجار الدين يسعون الى خلق الكهنوت والطبقية .

أين مؤلفات الفونس رينيه ؟

لقد ترجم له المثقفون المسلمون ، كل كتبه ، منذ وقت طويل ؟ فها هو مثقف عربى عظيم ، يسرع الى كتاب « الفونس رينيه » ، الذى وضعه ، ليرد به على دعاوى المستشرقين الفجة من ان دين الاسلام لم يات بجديد ..

وينشر كتابه « اشعة خاصة بنور الاسلام » ويترجمه له الاستاذ راشد رستم .. الذى يصف الفونس فى مقدمة الكتاب فيقول عنه :

« انك لتجده كاتبا واسع الاطلاع ، لذلك هو صحيح الحجة ، ناهض البرهان وهو شديد الهجوم شديد الدفاع ذلك لانه غيور على دينه ، الذى لم يتخذه ، الا بعد بحث وفكر .. لذلك كان فى عقيدته مكينا ، وفى اسلامه كاملا » .

ولهذا الرسام الفرنسي مؤلفات أخرى ومقالات كثيرة ، في صحف اوربا عن الاسلام ، منها كتاب « الشرق كما يراه الغرب » وقد ترجمه له الاستاذ عمر فاخوري ، ونشر في دمشق ، وكتاب الحج الى بيت الله الحرام .. وعديد من المحاضرات والدراسات الهامة .

وكان منهج الفونس العلمي ، في البحث والدراسة الاسلامية يعتمد على المراجع والمؤلفات الاسلامية المعترف بها ، ولم يتأثر باقاويل المستشرقين .

بل كان يتصدى لكشف اكاذيبهم ولديه البرهان .

ما هي العبرة في قصة الفونس رينيه التي سجلها كتابه عن رسول الاسلام ، عليه الصلاة والسلام ؟

في اكثر من مكان من كتاب ، الفونس رينيه ، او ناصرالدين كما اطلق على نفسه ، بعد اسلامه ، نجد موقفا شجاعا من المستشرقين واكاذيبهم التي حاولوا بها طمس حقائق الثقافة الاسلامية .. بسوء نية وبوعي شديدين !.

ويقول « الفونس » ان العلم هو روح الحضارة الاسلامية ؟ وان الرسول عليه الصلاة والسلام هو الذي قال :

« يوزن يوم القيامة ، مداد العلماء بدم الشهداء » . وهو عليه السلام الذي قال : « خيار الامراء يأتون العلماء .. وشرار العلماء الذين يأتون الامراء » ويقول عليه الصلاة والسلام :

« فضل العلم خير من فضل العبادة » وأهم ما في كتاب الفونس ، هو ان العلم او روح العلم كانت المشعل الى اضاء امامه الطريق الى اعتناق الاسلام وفي كتابه يقول :

« نظر المسيو كازانوفا احد كبار أساتذة الكوليج دي فرانس ؟ في باريس في كلمات رسول الله ، عن العلم والعلماء ، فعلق على هذه الكلمات بقوله : ان هذا هو مبدؤنا اليوم .. ان أوضح

مبادىء الحرية الفكرية ، عاد الفضل فيها الى رجل عربى من رجال القرن السابع ، ذلك هو صاحب شريعة الاسلام » .

وبعد قصة الفونس رينيه تأتى قصة أخرى لصحفى وكاتب أوربى .. شبيهة بقصة الفونس ..

وانا انقل هذه القصة من الدراسة الهامة التى كتبها الرئيس أنور السادات فى جريدة الجمهورية عام ١٩٥٣ فى سلسلة مقالات تحت عنوان « نحو بعث جديد » . وقد سبق لى تلخيص هذه الدراسة فى جريدة المساء .

ويروى الرئيس السادات القصة فيقول :

« كنت اقرأ منذ أيام كتابا ، وضعه مستشرق من النمسا ؟ اسمه ليوبولد فايس اعتنق الاسلام فيما بعد وهو فى غمرة بحثه ، عن السبب فى مأساة المسلمين واصبح اسمه محمد أسد .

جاء ذلك المستشرق « ليوبولد » او محمد اسد . من اوربا الى الشرق ، عام ١٩٢٢ وكان وقتها يعمل صحفيا يراسل امهات الصحف من افريقيا ومن آسيا .

ومضى ليوبولد ، يتجول فى بلاد المسلمين وبعد ان مضى عليه بعض الوقت فى الشرق شعر أن احاسيسه بدأت تنفعل بما يراه وهو يقول :

« لقد رأيت نظاما اجتماعيا ونظرة الى الحياة تختلف اختلافا اساسيا عما هو عليه الحال فى اوروبا فنشأ فى نفسى ميل الى ادراك الحياة أكثر هدوءا .. أو بعبارة اخرى .. اكثر انسانية ».

ويمضى الرئيس السادات يروى قصة ليوبولد فيقول :

« يزور ليوبولد أفغانستان والحجاز وسوريا ويمضى يتنقل من بلد الى آخر وهو يدرس ويبحث عن الحقيقة مسقطا من

حسابه واجبه كصحفى ناسيا ان عمله الذى يرتزق منه يوشك ان يضيع ، كان قد بدأ يتأمل فى الحياة ..

وهو عندما اعلن اسلامه ، كان يريد ان يواصل دراساته ، لهذا الدين الحنيف . الذى لم يسمع عنه ، وهو فى النمسا معزولا عن الشرق وفلسفته .. فمضى يواصل الليل بالنهار ، يدرس الحضارة العربية وفلسفة العرب وحقيقة رسالة محمد ، صلى الله عليه وسلم ، بنظرة علمية ، مختلفة تماما ، عن نظرة تاجر دين او مشعوذ ..

ثم يصل الى رأى .. ويقول :

« لقد كونت رأيا .. وهو انه فى الامكان تنظيم حياة الانسانية ، مع اقل قدر ممكن من النزاع الداخلى ومع اكبر قدر ممكن ، من المشاعر الحقيقية » .

وعندما تمر الاعوام بالشاب ليوبولد وهو يطوف بالشرق ، ويرى الحياة العفنة التى يحياها الملايين فيقول :

على اى حال ان الحياة الاسلامية - فى الواقع - تبدو فى ايامنا هذه بعيدة جدا ، عن الامكانيات العظمى التى تتضمنها تعاليم الاسلام . فما كان فى الاسلام من تقدم وحيوية اصبح اليوم ، تراخيا وركودا ، وكل ما كان فى الاسلام من ايثار وكرم ، اصبح اليوم انانية وعشقا للحياة الناعمة .. اصبح ضيق نظر !

ويمضى الرئيس السادات يروى القصة فيقول :

وقد تخيل ليوبولد نفسه مسلما ، يعيش فى بلاد المسلمين ، وهو يقول ان تلك ، كانت تجربة عقلية بحتة ، فانه كلما ازداد فهما لتعاليم الاسلام ، ازداد رغبة فى التساؤل ، عما دفع المسلمين الى عدم تطبيق تعاليم ذلك النبى العظيم عليه الصلاة والسلام ، تطبيقا عمليا على الحياة الحقيقية .. اى على الواقع ..

وناقش ليوبولد هذه المسألة مع المفكرين المسلمين - كما يقول - من طرابلس الى هضبة البامير فى الهند ومن البوسفور الى بحر العرب ، ويقول عن ذلك : عندما زادت رغبتى تلك ، واهتمامى بالاسلام اصبحت اتكلم مع المسلمين ، فأشفق على الاسلام - وانا غير المسلم - من اهمال المسلمين وتراخيهم !

ثم عاد ليوبولد الى اوروبا ، ثم جاء ثانية الى الشرق بعد أن اتم دراساته وتأملاته ، فى رحلاته الى الحجاز ونجد وبلاد المسلمين الاخرى ، وكتب يقول :

« ان هذه الدراسات والمقارنات ، قد خلقت فى نفسى عقيدة راسخة ، وهى ان الاسلام من وجهته الروحية والاجتماعية لا يزال بالرغم من جميع العقبات التى خلقها المسلمون ، اعظم قوة تنهض بالهمم عرفها البشر .. لهذا اتجهت رغباتى حول مسألة بعثه من جديد » .

ويختتم الرئيس السادات قصة ليوبولد بموقف ذلك الصحفى الاوربى من ضرورة بعث ثقافة الانسان المسلم . ويقول الرئيس السادات ، وبلا بعث جديد يشمل كل بلاد المسلمين لن ننهض ولن نجد الطريق الى العلم والعدل .

جوته والقرآن الكريم ..

ولا نستطيع أن نقف بقضية الايمان بالتراث الحضارى للاسلام وبالتراث الفكرى أيضا لديننا ، عندقصة الفوسر رنيه وليوبولد فايس ، فهناك فى اوربا عمالقة كبار للفكر والادب ، كان لهم تأثيرهم المباشر فى الحضارة الاوربية الحديثة وفى خلق فن جديد وتيار لهذا الفن حتى القرن العشرين ، وكانت لهؤلاء العمالقة كلمات مثيرة صادقة عن الحضارة الاسلامية والفكر الاسلامى .. بل نرى أعظم هؤلاء المفكرين والادباء يستوحى

افكاره من القرآن الكريم ومن افكار رسول الاسلام عليه الصلاة والسلام .. وهو المفكر والاديب الالمانى الخالد « جوته » .

فماذا تقول قصة « جوته » مع الاسلام والحضارة الاسلامية وهو الاديب الذى هز الوجدان البشرى بقصته الخالدة «فاوست» التى تتحدث عن الخير والشر .

فى عام ١٧٧٢ وفى مدينة فرانكفورت ، كان الاديب والشاعر « جوته » يعتزل الناس والنشاط الاجتماعى ، ليتفرغ بكل حواسه لقراءة ترجمة كاملة باللغة الالمانية للقرآن الكريم .

وهى الترجمة التى اعدها المستشرق والعالم الالمانى المعروف (مرجربين) ، حتى اذا فرغ (جوته) من قراءة هذه الترجمة للقرآن الكريم ، أسرع الى ترجمة اخرى للقرآن باللغة اللاتينية ، تم طبعها فى شمال ايطاليا بمعرفة القس الجزويتى (ماراتشى)عام ١٦٩٨ .. واعيد طبعها بمدينة ليبزج الالمانية ..

وفى كتاب الشرق والاسلام فى ادب (جوته) للاستاذ عبد الرحمن صدقى نجد قصة (جوته) بكل تفاصيلها ، وكيف هام بالشرق والاسلام ، واحب الشرق والاسلام .

ويقول المؤلف :

« اقتبس جوته بعض الآيات القرآنية .. وطبعت هذه الآيات بعد ذلك فى مجلد للمرة الاولى عام ١٨٤٦ .

وهى آيات من سورة « البقرة » ومن سورة « آل عمران » ومن سورة النساء ومن سورة الانعام ومن سورة طه .

ويقول أديب المانيا الخالد عن القرآن الكريم :

ان القارىء الاجنبى قد يمل قراءته للمرة الاولى .. لكنه يعود فينجذب اليه . وفى النهاية يروعه ويلزمه بالاكبار والتعظيم .

وقد تأثر (جوته) فى ديوان شعره بالقرآن الكريم ،والقارىء المسلم يكتشف ذلك وهو يقرأ هذا الشعر مثلا لجوته :

(لله المشرق والمغرب، وفى راحتيه الشمال والجنوب جميعا هو الحق وما يشاء بعباده فهو الحق .. سبحانه له الاسماء ، وتبارك اسمه الحق وتعالى علوا كبيرا .. آمين) .

ثم يقول فى شعره الذى تأثر بالقرآن :

(ينازعنى وسواس الغى .. وانت المعيذ من شر الوسواس الخناس ، فاللهم اهدنى فى الاعمال والنيات ، الى الصراط المستقيم) .

ثم يقول :

(لم لا اصطنع من التشابيه ما اشاء والله لا يستحى ان نضرب مثلا للحياة ببعوضة) .

وهذا الكلام موجود فى آيات قرآنية مباركة ، وفى ذلك الزمان ، فى عصر جوته كانت أوربا كلها ، تتجاهل التراث المحمدى . بل كانت أوروبا ، بسوء نية ، تحاول تشويه الصورة الحقيقية لرسول الاسلام ، وكان ذلك موقفا متعصبا بعد هزيمة أوربا فى الحروب الصليبية على ايدى قادة المسلمين فى الشرق .

ويقول عبد الرحمن صدقى فى كتابه عن جوته :

كانت التراجم الاولى للقرآن فى القرنين السادس عشر والسابع عشر مشفوعة دائما بالمقدمات والحواشى فى دحضه وتفنيده من قبيل الاعلان من جانب المترجمين عن حسن ايمانهم ، ودفعا للشبهة عن انفسهم ، وتزكية لعملهم وتكفيرا عنه فى عقيدتهم وعند اهل ملتهم .. ثم اخذ الموقف مع دخول القرن الثامن عشر الذى يسمونه عصر النور ، يدخل عليه التحسن على نحو مستمر ، ولكن ببطء .

وكان العالم الهولندى « أوريان ريلان » اول من امسك القلم من العلماء الاحرار للعمل على رد الاعتبار للاسلام ، فى كتابه (الديانة المحمديه) ثم جاء من بعده المستشرق الفرنسى (أرنست جانبيه) فامسك بالقلم لنفس الهدف الا وهو رد الاعتبار للديانة المحمدية بكتابه (حياة محمد) .. واعتمد فى مراجع بحثه على المؤرخ العربى (ابو الفدا) وكان اعتماد المستشرقين على المراجع الحقيقيه للسيرة النبوية ، دليلا على زوال روح التعصب ، عن هؤلاء العلماء الاوربيين الاحرار ..

وقد كان (فولتير) رغم تأثره بالشرق وروح الشرق .. لا يؤمن بالأديان ، ولا يرغب فى الانتماء لاى دين . فالثورة الفرنسية كانت على الابواب ، وهى ثورة لا تقيم أى وزن للدين او للانبياء .

ومع ذلك ورغم ان فولتير كان ملحدا ، الا أنه كان راغبا فى ثقافة الشرق .. وهذا دليل على قدرة الثقافة العربية على اشباع حاجات المثقفين الاوربيين فى ذلك العصر .. حتى لو كانوا من الملحدين مثل فولتير .. الذى كتب قصصه الكثيرة بوحى من تراث الشرق .

فهو لم يجد روحا ثقافية تشبع ميوله الثورية ، فى تراث اوربا ، بل وجد هذا الاشباع العاطفى والمعنوى فى تراث أهل الشرق .. رغم الحاده !

فالثقافة العربية لا تؤمن بالتعصب .. وتنفسح امام العقل البشرى فى يسر وود . والحب الانسانى يفيض من جوانب ثقافتنا العربية او الشرقية كما يسميها الاوربيون احيانا ..

ولنسمع معا هذا الشعر لجوته .. وهو ابلغ وصف لما نقول ، وهذا الشعر هو من اشعار الحكمة فى ديوان جوته الخالد :

من حماقة الانسان فى دنياه ..
ان يتعصب كل منا لما يراه ..
واذا كان الاسلام معناه التسليم لله ..
فاننا اجمعين نحيا ونموت مسلمين

وجوته فى نهاية عمره كاد ان يتصوف ويطلب الخلوة ! ..

فهو الذى يقول فى النهاية :

ان افتقارى لاستقرار الحياة ، وتقلب اهواء السياسة بالناس حببا الى عقر دارى وبودى هنا ، لو خططت حولى دائرة ؟ لا يتطرق اليها طارق ، غير الصداقة والفن والعلم ..

رائع هو الشرق ، القائم خلف الحوض المتوسط ، فالذى يحب (حافظ) ويعرفه ، يعلم وحده ما انشده كالدرون ..

تلك كلمات حوته عن الشرق الاسلامى واثر ثقافته الانسانية فى الهام الشعراء ورجال الفكر فى أوربا .. فحافظ الشيرازى الشاعر الفارسى الصوفى .. هو الذى الهم كالدرون .

و (جوته) اديب المانيا العظيم عاش فى نفس العصر ، الذى عاش فيه فولتير ، اى فى القرن السابع عشر .. اهى مصادفة ؟

انه عصر الثورة الفرنسية .

ففى هذا العصر ، شهدت أوربا بعثا ثقافيا رائعا ، وعرف الاوربيون ادبا ينهض بالهمم .. ويثير طموح الانسان نحو المدنية والحضارة ..

اعداء الحضارة الاسلامية

من اجل هذا وضع المستعمرون الاوربيون مخططهم الجهنمى لعزل شعوب الشرق الاسلامى عن تراث الاسلام حتى لا يستيقظ الشرق ويهب من رقدته وبذلك يتمكن المستعمرون والسلطة

الاجنبية من حكم الشرق وابقائه خلف جدران الظلام والتخلف الحضارى ..

ونحن نرى ذلك فى مناهج التعليم على اختلافها فى مدارسنا المصرية مثلا ايام الاحتلال .. فى مدارسنا كنا نتعلم دروس التاريخ من خلال بطولات اوربا وليس من خلال بطولات المسلمين ورجال الفكر الاسلامى ..

فى المدارس كانوا يعلموننا تاريخ « جان دارك » ويرفضون ان نتعلم تاريخ السيدة زينب .. اخت الامام الحسين وهى بطلة من بطلات التاريخ الاسلامى ..

كانوا يزرعون فى رؤوسنا نظريتهم الشيطانية والتى تلح علينا ان البطولات الانسانية لا وجود لها فى تاريخنا بل هى قاصرة على تاريخ اوربا .. وبذلك لا تراود احدنا احلام البطولة او النضال او الابداع .. من اجل هذا ظهرت عقدة الخواجا فى رؤوس ابناء ذلك الجيل .. وكل جيل من بعده وتلك جريمة اوربا الاستعمارية فى الشرق الاسلامى ..

ان اوربا زيفت تاريخ الامة الاسلامية لمصلحة الاستعمار الاوربى .. وفى نفس الوقت نجد اوربا تتعصب لبنى اسرائيل مثلا ، وتترك اليهود يزيفون تاريخ البشرية وينسبون الى بنى اسرائيل بطولات انسانية وحضارة انسانية لا نتعرض هنا فى هذا الكتاب لمناقشتها من خلال مراجع تاريخية عربية حتى لا نتهم بالتعصب ضد اليهود .. اعداء البشر فى كل العصور كما هو ثابت فى التوراة نفسها .. وفى الانجيل .. ولا نقول فى القرآن الكريم فقط ! !

بل نترك مؤرخ اوربى ومفكر اوربى معروف وله شهرته عند الاجيال الاوربية الحديثة ، يؤرخ لأعداء الشرق ولصوص الشرق ..

هؤلاء الذين اقاموا فى قلب امتنا دولة مزيفة همجية باسم الحضارة والديمقراطية كما اشاعوا عنها فى أوربا .. هى اسرائيل ..

ومن هم بنو اسرائيل .. لا مفر من ان نعرف هؤلاء الاعداء الذين يهددون حضارتنا وتراثنا ووجودنا ..

اما المفكر الاوربى المشهور الذى انقل عنه حقائق عن بنى اسرائيل فهو المؤرخ الفرنسى العظيم (جوستاف لوبون) وقد وضع كتابا عن اليهود فى تاريخ الحضارات .. واثبت جوستاف لوبون ان اليهود ليست لهم اية حضارة وليس لهم دور فى بناء حضارة البشرية .

ومن المفيد ان نعرف من هم هؤلاء البشر ، الذين يهددون الحضارة فى بلادنا ، ربما فى العالم كله . فها هو العالم مضطرب وها هو عناد الاسرائيليين يهز كوكب الارض بالخوف من فناء العالم .. من شبح الحرب الهمجية ، التى يلوح بها اعداء الحضارة والشعوب .

لكن العالم سوف يصمد .. أمام التآمر الاسرائيلى : ضد حضارة البشرية وها هو العالم يلعن اسرائيل .. وها هو العالم يعرف دور اسرائيل ، ربيبة راعى البقر فى هذا العصر .

من هم هؤلاء ؟..

اهم حقا من سلالة بشرية ، اهم حقا بشر ؟ ؟

يقول التاريخ انهم كانوا دائما برابرة همجا .. لا يؤمنون بالحضارة ولا بالسلام . كيف ؟ ..

عملاء للرومان واسرى عبيد فى بابل ولصوص كل العصور .. قتلة الاطفال والانبياء .. اعداء الفكر والسماء لم يأت نبى الا وصب اللعنة على رؤوسهم ، ولم يأت نبى الا وارتفع صوته ينادى الله ، ان ينتقم منهم .. فهم ليسوا من البشر

بمقاييس البشر ، اما بمقاييس الافاعى فهم ابناء الافاعى كما وصفهم يوحنا المعمدان ..

وهم الذين اخترعوا الكذب ، وداود عليه السلام يسجل عليهم هذه الحقيقة التاريخية .

استمعوا اليه فى مزاميره !

« لم يسمعوا لصوت الرب ، فرفع يده عليهم .. ليسقطهم فى البرية .. وليسقط نسلهم بين الامم ، وليبددهم فى الارض .. تكلموا معي بلسان كذب . بدل محبتى يخاصموننى . وضعوا على شرا بدل خير وبغضا بدل حب ، فاقم أنت عليه شريرا ؟ وليقف شيطان عن يمينه » .

ليس بعد هذا كلام ، اكثر تجسيدا للتاريخ الاسرائيلى .. والحاضر الاسرائيلى فهم حتى الآن عملاء للاشرار دعاة الحرب والاستبداد . وهم حتى الآن يقف الشيطان عن يمينهم !

لكن موقفنا الحضارى ودورنا الحضارى كأمة صاحبة تاريخ وتراث كل هذا سوف يحمينا ..

وتاريخ الاسرائيليين حافل بالمذابح غير انهم فى كل مرة ؟ يهزمون ، يتبددون كضباب الضحى ، لأنهم لا يقومون بالحرب من اجل البناء والفكر والحرية والحضارة .. بل لقد كانوا دائما بلا حضارة وبلا اخلاقيات انسانية ، غير اخلاقهم العنصرية الهادفة الى التسلط أو هدم المعبد فوق الرؤوس جميعا كما فعل شمشون فى اسطورتهم الشائعة .

وفلسطين كما يقول « جوستاف لوبون » الفيلسوف والعالم الشهير ، لم تكن غير بيئة مختلفة لليهود ، ولا يستحق الاسرائيليون كما يقول : « جوستاف لوبون » ان يعدوا من الامم المتمدنة .. لماذا ؟

يقول « جوستاف لوبون » فى كتابه (اليهود فى تاريخ الحضارات الاولى) والذى نقله الى العربية عادل زعيتر

(كان بنو اسرائيل أقل من امة ، حتى زمن شاول ، كانوا اخلاطا من عصابات جامحة ، كانوا مجموعة صغيرة افاقة ، تقوم حياتها على الغزو والسطو على القرى الصغيرة حيث تقضى عيشا رغيدا فى بضعة أيام ، فاذا مضت هذه الايام القليلة ، عادت الى حياة التيه والبؤس ، وقد ظل الاسرائيليون حتى آخر مرحلة من تاريخهم .. فى ادنى درجة من الحضارة قريبين من دور التوحش الخالص ولم يدخلوا دائرة التطور الاجتماعى . ولم تخرج الصناعة الاسرائيلية ، عن ادنى اطوار البدائية ولا تجد شعبا عاطلا عن الذوق الفنى كما كان الاسرائيليون) .

ويمضى جوستاف لوبون يصف بنى اسرائيل ، من مصادره التاريخية المؤكدة .. فيقول : لم يمارس الاسرائيليون الفنون الجميلة .

ويصف قدرتهم فى الحرب فيقول :

(وعلى ما كان من ممارسة بنى اسرائيل للحرب على الدوام ، لم تصبح الحرب فنا ولا علما عندهم ، كانوا جبناء بطبيعتهم،ولم يبدوا مرهوبين الا بما كان يحاول القاءه زعماؤهم وانبياؤهم فيهم من شجاعة مؤقتة) !

ثم يتحدث « جوستاف لوبون » عن همجية بنى اسرائيل ، وعن توحشهم وعن حقدهم العام على بنى البشر فيقول

« يعرف الجميع مدى وحشية بنى اسرائيل ، تلك الوحشية التى لا أثر للرحمة فيها ، كان ملوكهم يامرون كما تقول كتبهم ، بحرق الاعداء والاسرى ، وسلخ جلودهم وتمزيق اجسامهم بالمنشار ، وكان الذبح المنظم بالجملة ، يعقب كل فتح لهم مهما قل .. وكان الاهالى الاصليون يوقفون فيحكم عليهم بالقتل

دفعة واحدة ، من غير نظر الى الجنس والى السن .. وكان الحرق والسلب يلازمان سفك الدماء .. جاء فى سفر « يشوع » انهم بعد الاستيلاء على « اريحا » اهلكوا جميع ما فى المدينة من رجال ونساء واطفال وشيوخ ، حتى البقر والغنم والحمير واحرقوا المدينة وجميع ما فيها بالنار الا الذهب وآنية النحاس فانهم حملوها فى خزانة بيت الرب » .

ويصف « جوستاف لوبون » المجتمع الاسرائيلى وانحطاطه الشديد فيقول :

« سفاح ذوى القربى ، اى الزنا بالأخت والزنا بالأم واللواط والمساحقة ، ومواقعة البهائم من اكثر الآثام التى كانت شائعة بين ذلك الشعب .. وكانوا يربطون بين افظع الملاذ بالطقوس المقدسة وموافقة الشريعة ، فعدت ضروب البغاء تكريما لعشتروت » .

ها قد عرفنا من هم هؤلاء السفاحون الذين يهددون حضارتنا وتراثنا .. والذين نواجههم اليوم فى معركة مصير .. ويواجههم العالم معنا .. ويقف الى جانبنا ضدهم !

فمن نحن .. وما هو الفرق بين تراثنا وتراثهم .. اى ماهو دورنا وما هو دورهم ؟

يقول المستشرقون عنا .. بعد ان قالوا ما قالوا عن الاسرائيليين ..

« فى التاريخ الحضارى للعرب والامة المحمدية نجد العلم هو سفير السلام ، لقد احاط العرب التراث البشرى العلمى بقلوبهم ، وكما تطلب الدولة المنتصرة من الدولة المنهزمة ، تسليم اسلحتها وسفنها الحربية كشرط اساسى لعقد الصلح طلب هارون الرشيد ، بعد احتلاله لعمورية وانقرة تسليم المخطوطات الاغريقية القديمة .. ونرى المأمون بعد انتصاره على ميخائيل الثالث قيصر

بيزنطة يطالب بتسليم اعمال الفلاسفة القدماء التى لم تتم ترجمتها بعد الى اللغة العربية . ويعتبر المأمون ذلك بديلا عن تعويضات الحرب . وكان حكام العرب فى بعداد ، يرسلون البعثات الى كل مكان فى العالم ، للبحث عن كنوز العلم ، وكانت تلك البعثات تحمل أكياس النقود ، لتشترى بها المخطوطات من بيزنطة ومن الهند .. واستطاع العرب ان يكشفوا عن طريق بعثات العلماء العرب فى انحاء العالم عن تراث الحضارات » .

ويروى المؤرخون هذه القصة من تراثنا .. ليعبروا عن تشبث العرب بالحضارة والعلم الانسانى فيقولون عن دور العرب فى حماية الحضارات وبعثها :

« فى آسيا الصغرى ، وعلى مسيرة ثلاثة اميال من بيزنطة عثر محمد بن اسحق على مكتبة ضخمة فى معبد قديم كبير له باب لم ير من قبل باب حديدى فى ضخامته . لقد انشأ الاغريق هذا المعبد يوم كانوا يعبدون النجوم والأوثان ويتحدث محمد ابن اسحق عن مجهوده فى هذا السبيل ، كمندوب عربى فى البلاط البيزنطى فيقول : لقد رجوت الحاكم أن يفتح لى هذا المعبد ، ولكنه ماطل فى ذلك لان ابواب هذا المعبد لم تفتح منذ اعتنقوا المسيحية ، لكنى لم اكف عن اغرائه ، فعاونته فى مناسبات عدة ، وطلبت اليه كتابة ومشافهة فى جلسة من جلسات بلاطه التى اشتركت فيها واخيرا وافق على فتح المعبد .

فماذا وجد محمد بن اسحق فى المعبد ؟

وجد الف كتاب قديم .. فى العلوم والفلسفة .»

هكذا ماشت امتنا للحضارة والسلام .

وهكذا سوف نعيش للحضارة والسلام . اما اعداء البشرية فمصيرهم الآن سيكون مصيرهم فى الماضى .. اى الهزيمة ! .

وفى تراث اليهود نرى غير ما ذكر جوستاف لوبون ، اقاصيص عديدة ، عن اخلاقيات بنى اسرائيل ، وعن شغفهم وحبهم للدعارة

•• فقد كانوا حتى بعد موسى ، يمارسون الدعارة تقربا لعشتروت فهم ظلوا عبدة أوثان بعد موسى حتى وقعوا أسرى فى قبضة ملك بابل ، وهدم معبدهم « سليمان » وبعد سبعين عاما •• تظاهروا بالتوبة وعادوا الى دين موسى ، ولذلك سموا « اليهود » بعد موسى بزمان طويل ••

ومع ذلك .. فسرعان ما انقلبوا على دينهم•• وبدأوا بعد العودة من بابل يقتلون الأبرياء والنساء والاطفال ويمارسون كل الجرائم مع من يخالفهم فى الدين • تقربا الى الرب •

ويصف جوستاف لوبون ذلك بقوله « كان شعب بنى اسرائيل قد تمزق فى الاشراك ، مما كان يتعذر معه على عزيمة ملك أو نبى تخليصهم منه •

ولان بنى اسرائيل ليست لهم حضارة ولا تاريخ تمدن ، لذلك لم يكن لهم فنون •• وظلوا برابرة همجا •

وظلوا بلا وطن ••

ويطرح جوستاف لوبون قضيه عامه وهو يؤرخ لتراث اليهود وهى قضية انتشار الاقاصيص والحكايات عن امجاد اليهود وكفاح بنى اسرائيل فى أوربا بعد عصر النهضة • ويرى جوستاف لوبون أن الارهاب كان وراء ذلك التيار الكاذب لتزييف التاريخ كنوع من الدعاية السياسية لنستمع اليه يقول :

« نعم •• ان الشعب اليهودى لم يكن له شان فى بناء الحضارة بيد ان القرون بلغت من تجسيم شأنه مما كان له اثر غريب على عقول أوربا ، غير ان الدين تحرروا من سلطان الماضى فى أوربا ، استطاعوا ان يضعوا بنى اسرائيل فى مكانهم الصحيح » .

وننتقل بعد هذا العرض ، لتراث عدونا ، الذى يهددنا الآن ويفرض علينا الحرب فرضا •• الى تراثنا وهى قضية القضايا كلها •

ولا اجد هنا مفرا من مناقشة مسالة اهمية التراث فى مواجهة هذا العدو الهمجي البربرى المتوحش ‥ الذى اسمه اسرائيل ٠

منذ سبع سنوات كتب اخ عربى مثقف ‥ بل من خيرة المثقفين العرب ‥ فهو يحمل شهادة الدكتوراه مقالا عن تراثنا العربى فى احدى المجلات الشهرية المعروفة ٠

والأخ المثقف هو الدكتور فاخر عاقل ‥ استاذ علم النفس بجامعة دمشق ولا اجد اهم من أفكار هذا الاستاذ لنناقش من خلالها أهمية بعث التراث الحضارى لامتنا بكل ما نملك من طاقة وايمان حتى نتمكن من سحق عدونا وهو قابع فوق أراضينا نسحقه بالعقيدة وبالسلاح ٠

يقول الدكتور فاخر وهو يشرح مأساة المثقف العربى الآن :

« هل نعرف تراثنا ‥ وبتعبير آخر ، انني اتساءل عما اذا كنت انا نفسى أعرف تراث قومى (لاحظ انه استاذ جامعى) ـ هل اعرف تراث قومى معرفة تليق بى ؟

ويمضى الدكتور يتساءل وهو يطرح القضية :

ومثل هذا السؤال نطرحه بالنسبة للاديب والقاضى والطبيب والمهندس والفنان وعالم الطبيعة وعالم الرياضة وعالم الكيمياء ‥‥ وسواهم ٠

ويرد الاستاذ الجامعى فى شجاعة على السؤال بالنسبة له هو نفسه فيقول : « يؤسفنى أن يكون جوابى بالنفى فانا لا اعرف عن تراثنا العربى ، فى مجال تخصصى الا لمحات ، ولا الم الا بشذرات ‥ وانى لأستحى من هذا الجهل ، ولعل انكى ما فى الأمر انى اعرف عن التراث الانجليزى أو الفرنسى او الامريكى بل وحتى الالمانى أو الروسى أكثر بكثير مما اعرفه عن التراث العربى ‥ كيف ‥ ؟

يقول الاستاذ الجامعى الشجاع وهو يشرح هذا الموقف الخطير : ان الاطلاع على تراث الامم الاخرى امر ميسور ، لأن المكتبات زاخرة

به غير انى أرى أن اية محاولة للعرب فى هذه الايام فى الاسهام فى آى ميدان من ميادين المعرفة نحب آن يسبقها ويرافقها احياء تراثهم ، حتى يمكن استئناف المسيره بلا توقف • فالتراث الحضارى لامتنا هو الدعامة الكبرى فى قضية الوحدة العربية بل هو من أهم مقومات هذه الوحدة . فالتراث الحضارى لأمتنا كان تعبيرا عن وحدة الامة والعرب الذين تعاونوا دوما من خلال أدبهم وعلومهم .. وتاريخهم وعاداتهم .. وتواصلوا بهذه الاسباب .. واحب ان اذكر بان اى نظام تربوى أصيل لاية امة حريصة على بناء شخصيتها ، لا يمكن ان يكون أصيلا صحيحا هادفا مفيدا الا اذا قام على اساس التراث .. لهذه الامة .. فالترات اذن أول قاعدة يقوم عليها اى نظام تربوى اصيل لاية امة .

ويلخص الدكتور فاخر عاقل الموقف فى كلمات مباشرة فيقول:

« لقد كانت مواقفنا من تراثنا حتى الآن مواقف عاطفية .. ولا شك أن العاطفة ينبوع فياض ومصدر دافق من مصادر الخلق والابداع • والعاطفة القومية حق وواجب ، ولكن العاطفة التى لا يدعمها عقل أشبه ما تكون بزبد البحر ، لا يلبث أن يذهب جفاء » .

اذن ماهو الحل بالنسبة لقضية النراث .. وهى قضية مصير الامة •

يقول الدكتور فاخر عاقل :

ان العمل المثمر بالنسبة للتراث والعمل الصحيح لا يكون الا لهدف معقول ، وغاية مرموقة ، وبعد ادراك للوسائل والغايات ، وفهم للمقدمات والنتائج ، ويجب أن يكون هذا موقفنا من تراثنا . ان تعرفنا على تراثنا ، وتعريفنا به ليس غاية فى حد ذاته وليس هدفا عاطفيا يقصد به التفاخر .. بل هو واسطة الى غاية اهم وغرض اسمى .. وهذا الغرض الاسمى هو المستقبل الزاهر الذى يليق بهذا التراث العظيم من جهة .. وبامالنا الكبرى من جهة أخرى ».

اذن نحن أمام اخطر قضايانا المعاصرة .. ولا توجد قضـــايا تهم امتنا اخطر من قضية مواجهة الاحتلال الاسرائيلى لأراضينا .. ولا مفر من بعث حضارتنا وهى حضارة مترسبة فى وجدان كل الشعب ، حتى يمكن مواجهة هذا العدوان .. بموقف حضارى .. بموقف مستمد من تاريخنا هو موقف فلاح الدقهلية والغربية والشرقية والقليوبية فى مواجهة الاحتلال الفرنسى.. ثم البريطانى ومقاومة هذا الاحتلال جاء من مفهوم الحضارة الاسلامية .

ولولا انها بعثت فى حينها لما وقع لويس التاسـع فى الأسر .. ولما خرج الصليبيون من الشرق .. ولما خـرج الفرنسـيون ثم الانجليز .. وبموقفنا الحضارى المستمد من تراثنا سيهزم اليهود .. هذا هو منطق التاريخ .

ويأتى الفصل الأخير من هذا الكتـاب عن الوجه الآخر من حضارتنا .. عن الفكر الثورى الذى بعث هذه الحضارة وصنع الطموح الحضارى فى وجدان كل مسلم بعد ظهور الاسلام وانهيار حضارات الفرس والروم ومن قبلهم اليونان .

وسأتحدث فى هذا الفصل الاخير من الكتاب عن الحكم والفكر فى الاسلام ، وعن قصـة الامام على بن أبى طالب الذى استشهد وهو يناضل لحماية الاسلام من الدخلاء والانتهازيين الذين أفسدوه.

فتى الفتيـــان ونظرية
الحــب والحــكم .. !

سألوا الأم : أى اسم تختارينه للغلام ؟؟

والقت الأم نظرة على فلذة كبدها ، وابتسمت فى اطمئنان ، وهمست تجيب على السؤال :

ـ ليكن اسمه « حيدرة » .. اى الأسد

هل كانت رؤيا .. ؟

الأم ترى بقلبها ، مالم يره الآخرون من حولها ، بعد ان وضعت طفلها ، الذى اشتهت ، أن يكون شجاعا مثل الأســد ، مهابا لا يهزم ..

وقد كان .

تحققت أمنية الأم .. ولم يشهد التاريخ فارسا فى شجاعــته وفروسيته .. غير ان والده غير الاسم الى «على » بعد ذلك .. ثم مضت الأعوام .. بلغ الطفل السادسة من عمره ، وواجهت الأسرة المصاعب ، فقد جاء القحط ، وجلس ابو طالب ، رب الأسرة الكبيرة العدد ، فى داره يتعذب .. اى عذاب !

الأب الملهــوف على مصــير الاولاد ، وما أشقى الآباء ، حين لا يجدون طعاما لفلذات الأكباد !

القحط كان شديدا ، لا طعام يكفى كل هذا العدد من أفــراد الأسرة ، واشتد جزع الأب الحزين .. ماذا يصنع ..؟

وسمع الأب الملهوف ، وهو يتعذب ، طرقات على باب داره ..

أهم ضيوف ؟

وماذا سيقدم لهم ؟

البيت الهاشمى الكريم ليس فيه طعام .

يا للموقف الصعب !

وعادت الطرقات على باب الدار .

ـ افتحوا الباب

وفتحوا الباب ..

وكان القادمون هم اخويه حمزة والعباس وابن اخيه محمد بن عبد الله .. ولم تكن البعثة المحمدية قد بدأت مسيرتها بعد ..

ـ جئنا نخفف عنك ياأبا طالب .. اعطنا اولادك نتكفل بهم ..

هكذا جاء الفرج ..

آن للاب الملهوف الحزين ، أن يشعر بالطمانينة .

غير أن احدا ، فى تلك الساعة .. لم يكن يدرى ان قصة كونية قد بدأت :

فى اعماق الغيب كانت القصة ، وفى اعماق الغيب كانت سطورها تكتب وتنشر والانسانية فى غفلة والعالم كله يواجه القهر



والعذاب . فالبشرية تداس كرامتها ، وتنهب ارزاقها ، والجهل رايته عالية ، وامبراطوريات قامت على البطش والتسلط والقوة العسكرية .

فلا أمن ولا سلام .. ولا عدل ولا مساواة ... ولا ايمان بخالق كل شيء .. فما اشد عذاب كل البشر !

العالم كان جحيما يحترق فيه الابرياء والضعفاء ، وتتمزق مصائر البشر شر ممزق والسادة هم اصحاب العالم .

اما الجميع فلا يبقى لهم الا العبودية ، ومن ليس عبدا تستعبده لقمة العيش .. !

فئة قليلة كانت فى هذا العالم ، فى كل أركان هذا العالم ، تحتكر كل شيء ، لأنه كان عالما بلا عقيدة .. بلا ايمان .

عالم آلهته أصنام ونيران وقياصرة .

عالم مقهور بحد السيف ، وبجيوش همجية ، تدوس رؤوس البشر ، وهامات الرجال ، وتحطم قيم الانسان .

عالم ليس للمساكين فيه حقوق ، الا حق الاستشهاد : أن ارادوا الخبز او العمل او المناداة بالحقوق .

ويأتيهم الرد من السادة .. خذوا الموت ... !

عالم من اقصاه الى اقصاه ، غابة وحوش ، القوى يلتهم الضعيف واذا ارتفع الصراخ ، من سوف يسمع وأين النجاة ؟

كل من فى الغابة اما قاتل أو مقتول ..

ويموت الناس جوعا وضحكات المترفين تدوى فى آذانهم .

ومع ذلك كانت فى أركان هذا العالم ، فى ذلك الزمان، مدنيات وحضارات لكنها مدنيات مادية وحضارات شيدت أعمدتها من لحم البشرية ودماء الضحايا والعراة والجياع والعطاش .

عالم بلا روح ، ومصيره الى فناء ، فالانسان مادة وروح ، من المحال تجريده .

قوة بلا عقل ، ومصيرها الى الانهيار ...

لأنها قوة التوحش فى غابة الوحوش ■

كان كوكب الأرض فى ذلك الزمان ، يترقب معجزة .. يترقب كلمة .. يترقب رسولا يرفع راية المستضعفين والمساكين والجياع والعطاش والعبيد ..!

ولابد للرايه من فرسان سيوفهم تضرب هامات الجبابرة ولا تضرب هامات الشعوب ، تمزق لحم الطغيان وليس لحم الابرياء !!

فروسية جديدة ، تحمى الضعفاء والفقراء والعبيد ، وتنتزع لهم حقوقهم بالكلمة والسيف معا .. !

والقصة منشورة فى صفحة الغيب ، مسجلة فى كتاب الكون ، سطورها نور ونور ونور ، سوف يسطع كالشهب وسط الظلمات ... فقد جاء زمان النبى ..

خاتم الأنبياء ، وسط عصر ، كوكب الأرض فيه غابةوحوش!

وفى ذلك اليوم ، فى عام القحط ، والرسول الكريم يسحب ابن عمه الى داره ، ليخفف عن عمه والناس يرونهما فى الطريق ، ولا يدرى احد ، قبل نزول الوحى ماذا سيكون وراء هذه الرحلة ، من دار ابى طالب الى دار محمد بن عبد الله .

كان على بن أبى طالب فى الطريق الى مسيرة كونية .. وهو لايدرى ..

يا أبا طالب ، ليست هى ايام القحط ، تلك التى جعلت محمدا عليه السلام يخفف عنك مسئولياتك . فياخذ أصغر ابنائك ليتكفل به .

كلا .. انها مسيرة الحق آن لها ان تبدأ !

المسيرة على وشك أن تبدأ ، يا ابا طالب ، وانت تتمسك بولدك عقيل ، أكبر الابناء الاربعة ، واحبهم الى قلبك ، ليكن ما تريد يا أبا طالب ..

فالقصة الكونية تفرض أن يكون أصغر الابناء هو الذى يصحب الرسول عليه السلام ، فى مسيرته الكونية على سطح هذا الكوكب ، وسط غابة الوحوش .

ليبق معك عقيل يا أبا طالب .. وليصحب ابن اخيك خاتم الانبياء ، ولدك الصغير، على او حيدرة ، الى بيته الكريم ، ليكون ولى كل مؤمن من بعد محمد !

هكذا شاءت السماء .. وهكذا لا تكون الصدفة صدفة .. بل قدر مكتوب .

وقد يقول قائل : لولا القحط ، ما اخذ الرسول عليه السلام ، ابن عمه ليتكفل به .

هكذا يتصور العقل البشرى ، ولتفهم الأحداث ، غير ان مافى العقل البشرى من مفاهيم ، ليس الا نقطة ، فى بحر العلم الكونى ، حبة رمل فى صحراء ، راس دبوس فى جبل لا أول له ولا آخر. كيف يعثر عليه ؟؟

هذا الكون اللانهائى ، كوكب الأرض نفسه ، وسط نجومه وكواكبه ، ليس الا حبة رمل وسط الصحراء .

فما أشد غرور الانسان ، حين يتصور انه وحده فى هذا الكون .. حين يستبد برايه ويبطش بآراء الآخرين ، حين يزعق مثلما فعل فرعون بأعلى صوته ، ويقول فى خيلاء : أنا ربكم الاعلى .. بينما هو ليس الا حبة رمل ، ليس اى شىء الا انه انسان .. ليس صاحب قدرة ، الا قدرته على ان يزعق فى فراغ .

لماذا اذن لا يفهم ، لماذا لا يتواضع الانسان ؟

هاهى قصة كونية تبدا لتزرع التواضع فى قلوب البشر ! لتجعل الاشعث الاغبر ، أقرب الى الله من فرعون ، لو اقسم على الله لابره ..!

يا قصة الانسان .. ماذا بقى منك ؟

ها هى القصة تبدأ ، بداية بشرية ، رغم انها قصة كونية ! !

محمد عليه السلام ، يصحب الطفل الى داره ، وينظر على بن ابى طالب حوله ، هنا حب .. هنا نور .. هنا طمانينة ..

وأحب الطفل كل شىء من حوله .. وبدا عقله يتفتح على معارف ، لم تكن تتهيأ له فى دار ابى طالب .. فالمعلم هنا نبى ..

أما التلميذ فهو عبقرى ..

بل يبدو ان اللغة كلها ، لا تسعف القلم بتعريف صادق لفتى الفتيان ، وفارس كل زمان ،وولى كل مؤمن بعد خاتم الانبياء .

ليبتعد القلم ، عن وصف رجال مثل على بن ابى طالب ، لتسجل الافلاك القصة ان استطاعت ، لكن التعبير بالقلم ، عاجز محدود القـــدرة !

ها هو فتى الفتيـــان يبلغ التاســعة من عمره ، ويدرك بعقله انه فى صـــحبة انســـان ليس مثل البشر ، وان كان من البشر ، ويتحرك خيال الصبى .

من انت يا ابن العم ! يا محمد .. ولمن تسجـــد وليس أمامك صنم ؟

لقد رآه ذات صباح ، مع خديجه ، وقد انتحيا جانبا ، واستغرقا فى الصلاة . كان الوحى قد جاء من السماء ، وكانت خديجة ، أول من آمن برسالة السماء ، واول عقل بشرى ، تلقى من خاتم الانبياء النبأ العظيم ، نبأ المعجزة !

وظل الغلام يرقب ابن عمه وزوجته ، وهما يصليان ، لم يكن فى دهشة فقط ، بل كان فى ذهول ..

فالصلاة كما نعرف تبدأ أمام الاصنام ..

وليست هكذا بلا صنم .

وسأل على ، بعد أن فرغ الرسول وزوجته من الصلاة :

ـ ماهذا .. أهى شعائر ياابن العم ؟

واقترب الرسول الكريم من ابن عمه الصغير ، وكان يبتسم ، ووجهه يفيض بنور ساطع ولم يكن الرسول يرغب فى الجهر بالدعوة وكتمانها كان بأمر من السماء ، حتى تأتى الاشارة .. ويبـــدأ الجهاد وأى جهاد ؟

ومع ذلك ، ورغم ان محمدا عليه السلام ، كان يعرف ان ابن عمه لا يزال فى التاسعة وانه قد لا يفهم لو أخبره بنبأ الرسالة ، الا

أن الرسول الكريم ، كان يرى فى عقل الصبى ابن عمه ، غير مايراه فى عقول اترابه من الصبية الصغار .

هذا الصغير فى راسه عقل أكبر من سنه ، وكلماته وتصرفاته كلها تشير الى انه ينمو اسرع من غيره ، من الاطفال .

وتلك ميزة لعلى بن ابى طالب .. سجلها المؤرخون .

قرر الرسول عليه السلام ، ان يتحدث عن الرسالة مع ابن عمه الطفل الصغير ، وذلك لأن الرسول عليه السلام ، كان يعرف ان عليا ليس مثل غيره من الصغار ، وكان يحبه ، وكان حبه له هو حب الوالد لو لده ، ودائما كان الرسول يقول : على منى وأنا منه .

وتكلم خاتم الأنبياء ، ولعل خديجة المؤمنة ، أصابتها الدهشة ، وهى تسمع الرسول يتلو آيات من القرآن ، ليسمع الصغير كلمات ربه !!

ماذا سيفهم الصغير من تلك الآيات المباركات ؟

وازدادت دهشة خديجة ، وهى تسمع الرسول ، يتكلم عن الرسالة ، وعن الوحى ، وعن الدين القويم ، والطفل يسمع وهو فى ذهول ، وقال الطفل وهو لا يزال مذهولا :

ـ هذا أمر لم أسمع به من قبل .. ولست بقاض أمرا .. حتى احدث ابا طالب .. !

وهنا قال له الرسول ، فى حنان الأب ، وهو يبتسم له :

ـ ياعلى ... اذا لم تسلم فاكتم هذا ..

وفهم الصغير ، لماذا يخشى الرسول الكريم الجهر بدعوته .. أحنى راسه فى طاعة وفى احترام .. فمن فى هذه الدنيا ، اقرب الى قلبه من ابن عمه ، الذى يرعاه ويمنحه حبا ، يجعل من أيامه كلها ، أياما مطمئنة .

لم يعلن الصغير اسلامه فى تلك الليلة ، التى سمع فيها حديث السماء ، من بين شفتى الرسول ، بل مضى الى فراشه .. فهل نام الصغير ؟

ظل طول الليل يفكر ، ويتأمل فى كل شىء وفى الصباح هرول الى الرسول ليعلن اسلامه ، عن يقين ، وعن ايمان حقيقى بالرسالة ••• ثم لم يفارق الرسول بعد ذلك لحظة •

فاذا جاء وقت الصلاة ، تبع الرسول الى شعاب مكة ، ليؤديا الفريضة ، بعيدا عن الأعين ، مستخفيا عن أبيه وأعمامه، فالصغير يكتم اسلامه ، عن الجميع ، كما فعل الرسول وخديجة ، فقد كانوا ثلاثة •• فى بدء المسيرة المحمدية !

وجاءت الاشارة من السماء ، الى الرسول الكريم للجهر بالدعوة أى ببدء الجهاد ••أى جهاد ؟

جهاد لم يشهد التاريخ الانسانى مثله ، فى العزم وفى الصبر وفى الطموح •

جهاد تحدد بأمرين •• الشهادة أو النصر •

لكن كيف بدأ الجهر بالدعوة ؟

ها هو الرسول الكريم ينادى عليا •••

لبيك يارسول الله ••

وينصت الصبى الى الرسول ويفهم أوامره •••

أمره ان يعد وليمة ويدعو اليها بنى عبد المطلب •

وجاءوا •• وكانوا اربعين رجلا •• ووعاء الطعام صغير ، غير انهم شبعوا !!

أهو سحر ؟

هكذا قال ابو لهب ، وهو ينصرف ، ويدعو الجميع الى الانصراف فى فظاظة وفى استعلاء •

مارأينا سحرا كسحر اليوم فلنبادر بالانصراف !

لكن الرسول يكرر الدعوة ، ويذهب الصغير ليدعو بنى عبد المطلب مرة ثانية ••

وجاءوا •• هم انفسهم • نفس الرجال ••• ومعهم غليظ القلب ، اعمى البصيرة أبو لهب •

وقال الرسول لبني عبد المطلب :

ـ ما اعلم انسانا في العرب ، جاء قومه ، بافضل مما جئتكم به ، قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة ، وقد امرني ربي أن ادعوكم اليه ، فايكم يجيبني الى هذا الأمر ويؤازرني عليه ، فيكون وصيي ووزيري ، ويكون اخي ؟

وكانت مفاجأة للقوم ، لم يتوقعوا ان يدعوهم ابن اخيهم الى دين جديد .. غير دين الآباء والأجداد .

والتفت كل منهم الى جاره ، والدهشة تتملكه ، ماذا يقول محمد ؟؟

وانعقدت السنتهم .. ثم انفجر الغضب من الوجوه .

ولم يتكلم احدهم فترة طويلة . ظلوا واجمين ، تستبد بهم الدهشة ، وتمتلىء صدورهم بالكراهية .

وكان علي ، لصغر سنه ، يتوقع غير هذا كله ..

كان الصغير المؤمن ، لايعرف الكراهية .

كان يفكر ورسول الله يتكلم ، ان القوم سوف يفرحون بالدين الجديد ، بل كان يتوقع أن يتنافسوا ويسرعوا ، ليتشرفوا بالانضواء تحت راية الاسلام .

لكنه ، رآهم ينظرون الى محمد عليه السلام في حقد ..

وهنا لم يسكت الصغير ، الذي فاجأته موجات الكراهية في موقف بني عبد المطلب . وقف علي بن ابي طالب ، وهو لايزال في العاشرة وسط هؤلاء الرجال ، وقد نسي تقاليد الهاشميين ، فالصغار لا يتكلمون وسط الكبار ، وليس هؤلاء كبارا فقط ، بل هم من أشراف القوم .. لكنه كان فتى الفتيان ، حتى وهو في العاشرة .. لأنه هب في حماس ليقول ، متحديا بني عبد المطلب

ـ انا يارسول الله وزيرك ..

وكأنه كان يتكلم بلسان القدر ..

ولم يبتسم الرسول ، كما ابتسم بنو عبد المطلب ، ساخرين من الفتى الصغير • بل اقترب الرسول من على ، ووضع يده على كتفه وقال :

ـ ها هوذا وصيى •• ها هو ذا وزيرى ! • هاهو ذا اخى ••

وفاضت قلوب القوم بالغضب ، ثم فجاة انفجروا يضحكون وابو لهب تعلو ضحكاته الجهنمية ويصرخ موجها الكلام لابى طالب ،والد الصغير الذى أصبح وزيرا للنبى عليه السلام •

ـ أسمعت ..؟ انه يأمرك بأن تسمع لابنك وتطيع !

وهب الجميع ، ليعلنوا عن احتجاجهم وغضبهم وانصرفوا •• لكن أبا طالب خرج والحزن يملأ قلبه ••

لقد رأى الاخطار تتهدد ابن اخيه محمدا •• وولده عليا • رآها فى بريق أعين القوم •• وفى همسهم ••

فماذا كان موقف هذا الشيخ ، الذى وجد نفسه بين شقى الرحى ••

يا أبا طالب •• ماذا سوف تصنع ؟؟

ولدك الصغير مع ابن اخيك ، يواجهان سيوف قريش •••• كل قريش •

اين المفر يافلذة كبدى •• اين المفر ياابن أخى •• ؟

وجلس الشيخ مهموما ، يستبد به المرض والحزن والشيخوخة •

غير ان القصة الكونية ، كانت سطورها مكتوبة فى صفحة الغيب ، ولا أحد يعرف •

وكان لا مفر من الصدام السريع الذى ينهى كل شىء وتتحرك قريش ، لتدفن الراية المحمدية قبل ان ترتفع •••

ويقف الشيخ الهاشمى وقفة القدر ••

مكتوب عليك يا ابا طالب ان تقف هذا الموقف •

وولدك سيكون فتى الفتيان ، سيكون باب المدينة •••

أما المدينه فهى مدينة العلم ، هى محمد صلى الله عليه وسلم ، ولكل مدينة باب ، يدخل منه الناس اليها .

وباب المدينة سيكون ولدك يا أبا طالب ، وانت لا تدرى !!

بل سيكون ولى كل مؤمن بعد خاتم الانبياء ..

أية قوة اذن يمكنها ان تمنع المسيرة المحمدية ، ومادامت قد بدأت فلا مفر من ان تمضى . وانت ياابا طالب تفكر فى الأمر ، وتصاب بالهلع ، من سوف يرحم ولدك وابن اخيك ، قريش تتحرك .. والخطر يقترب ..

الموقف اذن لا بد ان يحسم ..

لم يعد المؤمن يخفى ايمانه ، بل يجهر به ، والدعوة المحمدية تتجنب الصدام ، لايزال المؤمنون ينتشرون فى شعاب مكة ، ليؤدوا الصلاة بعيدا عن اعين الكفار .

لكن الكفار يتجسسون عليهم ، ويعرفون مكانهم فى شعاب مكة .. ويبدأ الحوار والسباب ، الكفار يسخرون منهم ويسبونهم ، لكن ماذا بعد السباب ؟

لا مفر من اراقة الدماء اذن ..

واول نقطة دم اريقت ، فى بدء الدعوة ، هى دماء كافر ، كان يتجسس على المؤمنين وسبهم وشتم دينهم . وكان سعد بن ابى وقاص قد أعلن اسلامه ، وكان مع المؤمنين فى هذه الساعة ، فتملكه الغضب ، وهو يسمع سباب الرجل الكافر ، فتناول حجرا وقذف به الرجل ، وأصاب الحجر وجه الرجل وسال دمه .

غير ان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قرر أن يمنع مثل هذا الصدام ، فاختار دار الارقم ، وهى دار بعيدة ، ليجعل منها مصلى للمؤمنين .

وكان الموقف يتحول بسرعة الى نقطة الصدام ، الذى لا مفر منه ، وكان أبو طالب لا يزال على موقفه من الاسلام ، فهو مشرك ، ولا يستطيع أن يمنع الصدام ..

فهو رغم عدم قدرته على ترك دين ابائه واجداده ، كان يحتفظ في قلبه بحب فائق لابن اخيه ، ولا يتصور أن يصيبه سوء وهو حي ..

وعرف اشراف قريش ، موقف الشيخ الهاشمى ، وحرصه على حماية ابن أخيه ، فقرروا التوجه اليه بوفد منهم .. لتحذيره !

كان الوفد مكونا من كبار القوم واشرافهم ، عتبة بن أبى ربيعه وأبو سفيان بن حرب ، وأبو جهل وغيرهم .. وتكلموا مع الشيخ الهاشمى :

« يا أبا طالب ، ان ابن اخيك قد سب آلهتنا ، وعاب ديننا ، وسفه احلامنا ، فاما ان تكفه عنا ، واما أن تخلى بيننا وبينه .. وانك على مثل ما نحن عليه من خلافه .. فنكفيكه .. »

ورد عليهم أبو طالب ردا جميلا .. ثم انصرفوا ..

لكن الأمر يتفاقم فى مكه ..

الرسول الكريم يزداد نشاطه ، والدعوة يتردد صداهـــا فى الصحراء وخلف الجدران .. والهمس يشتد ..

وعاد سادة قريش الى أبى طالب .. والشرر يتطاير من اعينهم :

« يا أبا طالب . ان لك سنا وشرفا ومنزلة فينا ، وانا قـد استنهيناك من ابن اخيك ، فلم تنهه عنا ، وانا والله لا نصبر على هذا حتى تكفه عنا ، أو ننازله واياك ، حتى يهلك احد الفريقين » .

وشعر أبو طالب ، بأنه بين شقى الرحى ، فهو لا يقدر عـلى فراق قومه ، ولا يستطيع خذلان ابن أخيه !!

وارسل ابو طالب يستدعى ابن اخيه ، خاتم الانبياء وسـيد الخلق أجمعين .

وجاء الرسول الى عمه ، وروى له العم ، ماكان من قريش ، ثم قال :

« تدبر الأمر ، وابق على ، وعلى نفسك ، ولا تحملنى من الأمر مالا اطيق ..

واجابه الرسول بقوله المشهور :

« ياعم .. والله لو وضعوا الشمس فى يمينى ، والقمر فى يسارى ، على أن اترك هذا الأمر ، حتى يظهره الله او أهلك فيه ، ما تركته » .

ماذا كان موقف الشيخ الهاشمى ، الذى لم تسعفه شيخوخته ، وسنه المتقدمة ، على مخالفة اشراف قريش وترك ديانتهم ، ماذا كان موقفه من عزم الرسول ، ذلك العزم ، الذى عبر عنه محمد عليه السلام ، بابدع الكلمات ، وهو يؤكد مسيرته السماوية .. رغم عظيم الاخطار ؟؟

اقبل على ابن اخيه فى حنان ، واعلن انه سيحميه ويدفع عنه الأخطار ..

والحقيقة فى موقف ابى طالب ، من عدوان قريش المرتقب ، على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، هى أن هذا الشيخ الهاشمى ، كان يعتز رغم عدم دخوله الاسلام ، بما رآه ذات يوم ، وبذكريات ذلك اليوم ..

ذات يوم .. بالصدفة .. راى أبو طالب رسول الله عليه السلام ، مع ولده على ، يؤديان الصلاة ، بالقرب من نخلة بعيدة عن الأعين .. وبعد أن انتهى الرسول الكريم وولده على من الصلاة ، اقترب منهما فى حنان ، امتزج بالدهشة وقال للرسول :

ـ يا ابن اخى .. ما هذا الذى اراك ، تدين به ؟

وقال الرسول لعمه :

ـ هذا دين الله ، ودين ملائكته ورسله ، ودين أبينا ابراهيم ، بعثنى الله به رسولا الى العباد ، وانت احق من بذلت له النصيحة ، ودعوته الى الهدى ، واحق من اجابنى الى الله تعالى ، واعاننى عليه »

فقال الشيخ الهاشمى وقد تصور موقفه ، بين مشايخ قريش ، حين يتحداهم :

ـ انى لا استطيع ان افارق دين آبائى وما كانوا عليه ، ومع ذلك فانى اعلم من صدقك ، ما يجعلنى أؤمن بحقيقة ما تدعو اليه والله لا يصل اليك أحد بشىء تكرهه ما بقيت »

ثم التفت الشيخ الى ولده على ، وقال له يؤيد دخوله الاسلام .
ـ اما انه لم يدعك الا الى خير فالزمه .
كان هذا موقف ابى طالب ، من الدعوة المحمدية ، رغم انه لم يستطع لكبر سنه ، ان ينعزل عن اجماع قريش .
وهو موقف فيه فتوة ..
والعرب كانت لهم فتوة قبل الاسلام .
فرض حمايته على محمد الرسول ، وتحدى قوى شرسة ، متربصة بالرسول الكريم ..
وهذا موقف مؤيد للاسلام .. فيه فتوة !
هكذا بدأت المسيرة المحمدية ، فى مناخ مشحون بالتناقض ، والقوى الهائلة ، المدعمة بالمال والسلاح والعصبية ..
وكانت بدايتها من أصعب البدايات ، فى تاريخ الاديان كلها ، لأن الرسول صلى الله عليه وسلم ، واجه كل هذا جهرا بالدعوة ، رغم ان من حوله أفراد قلائل ، يعدون على أصابع اليدين ..
ومعه أصغر المسلمين سنا .. على بن أبى طالب ..
واجه الرسول كل الأخطار مجتمعة ، وهو لا يزال فى بدء الدعوة .. وتلك المواجهة الشجاعة ، هى احدى معجزات خاتم الانبياء .
وفى هذا المناخ المهيب ، وسط كل هذا العزم شب الفارس والامام وفتى الفتيان ، وولى كل مؤمن ، من بعد رسول الله ، كما قال عليه الصلاة والسلام عنه بعد ذلك ، يرد على الصحابة حين جاءوه ، يعتبون على ابن عمه ، فى بعض الأمور ..
لكن ما هى الفتوة فى الاسلام ؟
تلك التى اصبح على بن ابى طالب فتاها وفارسها ؟
والفتوة فى الاسلام ، غير فتوة الجاهلية ، كما انها غير فتوة الاديان ، التى سبقت البعثة المحمدية ، فما هى فتوة الاسلام ، تلك التى رفع الامام على فيما بعد رايتها ؟
قال الرسول خاتم الانبياء عن فتوة الاسلام :

ـ لفتيان أمتى عشر علامات ..

وسأل سائل :

ـ وهل لأمتك فتيان يا رسول الله ؟؟

قال عليه السلام :

ـ نعم .. واين الفتوة الاولى ، من فتوة أمتى ؟ ؟

وعاد السائل يسال :

ـ وما تلك العلامات يا رسول الله .. ؟ ؟

وقال الرسول للسائل :

ـ « صدق الحديث .. والوفاء بالعهد .. واداء الأمانة .. وترك الكذب .. والرحمة باليتيم .. واعطاء السائل .. وبذل النائل .. واكثار الصنائع .. وقرى الضيف .. والحياء .. »

أما الذى وجه السؤال ، لنبى الاسلام ، فقد كان هو نفسه ، على بن أبى طالب ، وكان لا يدرى ، أنه سيكون فتى الفتيان ..

لانه كان أشجع فرسان البعثة المحمدية ، فى الصبر على المكاره ، ومواجهة المصاعب ، بقلب المؤمن على الدوام ، وبموقف القدوة ، وضرب المثل ..

فهو الشهيد الطامع فى الشهادة فى كل لحظات عمره ، وامتدت تلك الفتوة المثلى ، لتشرق على الامة ، بمواقف آل البيت جميعا ، بعد ذلك فنراهم يضربون المثل ويصنعون موقف القدوة ، حين استشهد نسل فتى الفتيان ، من الرجال جميعا فى كربلاء .. فيما عدا واحدا .. كان طفلا وكان مريضا ، واحتضنته السيدة زينب رضى الله عنها ، وابت أن تسلمه للقتله ، ومنه جاء نسل آل البيت ، ليتجمع حولهم وجدان الامة ، فى ساحات المساجد والأضرحة ، التى ترقد فيها أجسادهم الطاهرة ..

فتظل روح الاسلام ، تنبض بها عروق الامة .

لأن ابناء الامة يرون القدوة : فى فلذات اكباد فتى الفتيان الشهداء ..

فالحسين رضى الله عنه ، يرى نفسه وأولاده ، وابناء اخيه ، وشقيقاته ورجال هاشم ، سيذبحون ، ان لم يبايعوا الطاغية ، عدو الشورى .

ومع ذلك يصمد الحسين ، ويصبر على الموقف الصعب ويقاتل ومعه سبعون مقاتلا ، والجيش الذى يهاجمهم ، ويجتاح كربلاء ، يبلغ اربعة آلاف .

هكذا كانت قصة فتى الفتيان .. التضحية وبذل الروح ، فى سبيل الاسلام ..

وهكذا كانت قصة فلذات أكباده .. آل البيت ..

واذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قد قال فى حديثه :

« الخير فى أمتى الى يوم القيامه » .. فان أعظم خير ، اى صلاح القلوب بالاسلام ، هو ما نراه فى سجلات التاريخ ، من مواقف الأمة حول ساحات آل البيت ، وتجمع الناس حتى يومنا هذا ، بوجدانهم الدينى العريق ، حول مقام الحسين والسيدة زينب والسيدة سكينة والسيدة نفيسة ، وكل من له صلة رحم ، بفتى الفتيان على بن أبى طالب ..

لان فتى الفتيان ، هو باب مدينة العلم المحمدى ، وليس لمسلم ، ان يدخل المدينة العامرة ، الا من بابها .

فكيف أصبح للمدينة بابا .. أى كيف أصبح للعلم المحمدى مفتاحا .

بموقف الفتوة .. ذلك الموقف التاريخى ، للامام على بن ابى طالب ، فى الحرب وفى السلم .

فهو فى الحرب فارس الفرسان ، وهو فى السلم فتى الفتيان ..

اما العلم فهو علم الرسالة المحمدية .. وهو علم كونى مرتبط بمنبعه السماوى .

وقد كان فتى الفتيان هو الوزير والأخ ، وولى كل مؤمن بعد الرسول .. هكذا قال النبى .

ولنبدأ بفتوة الامام . الفارس وباب المدينة ..

والفتوة كما تحدث عنها الرسول ، صلى الله عليه وسلم،بدات بفتوة سيدنا ابراهيم الخليل ، وانتقلت منه الى الانبياء من بعده ، حتى تجسدت فى خاتم الانبيـاء . وقد سأل على بن ابى طالب ، الرسول الكريم بعد أن أعلن عليه السلام أنه فتى الفتيان ، سؤالا عن جذور الفتوة فى الاسلام ..

ـ يا رسول الله .. من أبى ومن اخى من الفتيان ؟

قال عليه الصلاة والسلام :

ـ أبوك ابراهيم خليل الرحمن .. واخوك انا .. فتوتى من فتوة ابيك .. وفتوتك منى ..

ثم سـلم اليه رسـول الله ، بعـد ذلك سلاحه ، يوم غزوة حنين ..

ومنذ ذلك اليوم ، بدات فتوة الفتى ، تنمو حتى وصلت الى موقف الاستشهاد ، فى كل يوم من عمره ، ثم اصبحت فتوة الامام ، على بن ابى طالب ، هى التجسيد المشرق لفتـوة الاسـلام ، تلك الفتوة ، التى انتقلت تقاليدها ، عبر الزمان الى كل اركان العالم ، كما قال المؤرخون .. فكانت بذرة عصر الفرسان فى أوروبا خلال القرون الوسطى ..

فقد كانت حياة المرابطين على حدود الامبراطورية الاسلامية ، وهم رجال فتوة ، ترسل اشعاعات بتقاليدها المهابة ، فى الاناضول ، وفى صقلية ، وفى اسبانيا .. وعلى ارض فلسطين ، حيث دارت الحرب الصليبية ، وتعلم الاوروبيون من فتيان المسلمين ، اشرف ما تحلى به فرسان أوروبا ، فى عصور الفرسان .. حيث لم تكن أوروبا تملك اى تراث فى الفتوة الانسانية ، غير تراث الرومان فى البطش والجبروت وسحق الضعيف .

والفتوة الانسانية ، هى التى تحفظ لروح الانسان هيبتها ، ولكرامة الانسان حقها ، والبشرية بلا فتوة ، تفقد ميزة تفوق الانسان ، على غيره من المخلوقات .

وبالنسبة للاسلام ، نرى الفتوة ، ضرورة دينية ، وبقاء الفتوة بين المسلمين هو علامة البعث المستمر .. المتجدد الى ما لا نهاية حتى تقوم الساعة ..

يقول عليه الصلاة والسلام ، يصف الزمان الذى لافتوة فيه ..

« يأتى على الناس زمان ، تعدم فيه الفتوة ، وتنقص فيه المروءة ، وتضيق فيه الاخلاق .. فاذا كان ذلك فانتظروا العذاب .. »

والفتى فى الاسلام ، هو قدوة للمسلمين ..

لان العقيدة بلا قدوة،لاتصبح قادرة على الاستمرار ، بل لاقيمة لوجودها ، اذا لم يحمل تبعاتها أصحاب العقيدة .. فاذا فعلوا ذلك فهم فتيان ..

لماذا يربط الرسول عليه السلام ، بين بقاء الاخلاق وبقاء الفتوة ، اذا لم تكن الفتوة ، هى حقل الاخلاق الخصب ؟

بل ان الفتوة فى الاسلام ، هى عماد بقاء الامة المسلمة ، وعماد قوتها المادية والروحية ، لان الفتوة هى اخلاق البشر ، ولا بقاء لامة بلا اخلاق ، توحد الناس ، وتشد بعضهم لبعض ، بالايمان والنجده .

وقصة فتى الفتيان تؤكد هذه الحقيقة .. فماذا تقول القصة .. ؟

وجاء زمان الغزوات ..

اصبح للاسلام فرسانه ، واصبح للاسلام سيوفه .

لقد بدات الحرب ، وذهب السلام .. الدعوة المحمدية ، تواجه الصدام بالسيف ، وفتوة الاسلام تتعاظم !

ولا فتى الا على .. ولا سيف الا ذو الفقار ..

غير ان الفتوة الاسلامية ، تجتاح الوجدان العربى ، وتسكن فى العقل والقلب ، لأن القدوة تضرب المثل .. ولا عقيدة بلا قدوة ..

كيف كان يبدو فتى الفتيان ؟ ..

ما هى أوصافه الجسدية ؟ ..

أما أوصافه الاخرى فتملأ مجلدات عظيمة .

يقول المؤرخون عن أوصافه :

« .. مكين البنيان ، فى الشباب والكهولة ، حافظا لتكوينه المكين ، حتى ناهز الستين ، ربعة أميل الى القصر ، اسمر أصلع ، مبيض الراس واللحية ، ثقيل العينين فى دعج وسعة ، حسن الوجه ، واضح البشاشة ، أغيد كأنما عنقه ابريق فضة ، عريض المنكبين لهما مشاش كمشاش السبع الضارى ، لا يتبين عضده من ساعده ، يميل الى السمنة ، فى غير افراط ، ضخم عضلة الساق ، ضخم عضلة الذراع ، يتكفأ فى مشيته ، على نحو يقارب مشية النبى ، ويقدم فى الحرب لا يلوى على شىء .. »

واجمع واصفوه على انه :

« كان على قوة جسدية ، بالغة فى المكانة والصلابة ، فربما رفع الفارس بيده ، فجلد به الارض ، غير جاهد ولا حافل ، ويمسك بذراع الرجل ، فكأنه أمسك بنفسه ، فلا يستطيع الرجل أن يتنفس ، واشتهر عنه انه لم يصارع احدا ، الا صرعه ، ولم يبارز احدا الا قتله ، وقد يزحزح الحجر الضخم ، لا يزحزحه رجال ، ويصيح الصيحة فتنخلع قلوب الشجعان .. »

وتأتى مع أوصافه فى الكتب ، كلمات ، عن قدرته على احتمال الحر والبرد ، فهو كان لا يهتم بالاحوال الجوية ، فى الصيف والشتاء ، ورآه الناس يرتدى ثياب الصيف فى الشتاء وثياب الشتاء فى الصيف . وسألوه فقال :

« ان رسول الله صلى الله عليــه وسلم ، بعث الى وانا ارمد العين ، يوم خيبر ، فقلت يا رسول الله .. انى ارمد العين ، فقال عليه السلام :

اللهم اذهب عنه الحر والبرد . فما وجدت حرا ولا بردا منذ يومئذ » ..

واشترك فتى الفتيــان فى كل الغزوات ، فيما عــدا غزوة « تبوك » .. لأن رســول الله ، صلى الله عليه وســلم اقامه على المدينة فى غيابه ..

ومواقفه فى الحرب المحــمدية ، تزيد على هذه الصفحات المقدر لها ان تنشر . غير أن موقفا واحدا منها أو موقفين فيهما الدلالة والعلامة ، ولنبدأ بموقفه فى حرب الخندق .. او غزوة الخندق .

كان لا يزال فى صدر شبابه ، يافعا ومنطلقا الى الجهاد،بعزم يفل الحديد .

كان عدد الاعداء عشرة آلاف من المقاتلين الكفار .

من قريش ، ومن كنانة ومن غطفان ، وعرب تهامه وعرب نجد ، ورغم تفوق الكفار ، غير انهم رأوا المسلمين يقيمون خندقا ، يفصل بينهم وبين زحف الكفار ، وكان سلمان الفارسى ، هو صاحب هذه الفكرة العسكرية .. وسلمان الفارسى من أهل الفتوة أيضا ..

وقال الكفار : والله أن هذه المكيدة ، ما كانت العرب تكيدها .

لكن مجموعة كبيرة من فرسان الكفار ، توجهت نحو مكان ضيق من الخندق ، والهبوا اعجاز الخيل بالسياط ، فاندفعت تصــهل لتقفز نحو الخندق ، وتعبره فى قفزة مفاجئة مباغتة .

وهكذا واجه المسلمون ، فرسان الكفار .

واندفع فتى الفتيان ، نحو الكفار ، جريا على قدميه ، ومن خلفه المجاهدون من جيش المسلمين ، الذين لم ترهبهم الخيل ولا كثرة عدد الفرسان ...

وفى جراة تثير العجب ، تقدم هؤلاء المشاة ، بقيادة على بن ابى طالب ، نحو جيش الكفار الذى عبر الخندق ، ووقفوا بينهم وبين الخندق ، ليمنعوا الكفار من الهرب اذا اشتد القتال ..

واشتد الموقف توترا ، عندما تقدم اقوى الفرسان فى جيش الكفار ، الذى عبر الخندق ، واسمه عمرو بن عبد ود بقامتـه العملاقة ، وكان فوق صهوة جواده واطلق صيحات السباب ، وهو ينادى المسلمين للنزال والقتال ..

وطلب فتى الفتيان ، رغم صغر سنه الاذن من رسـول الله ، لينازل هذا الفارس العملاق ، الذى يشتم المسلمين ..

واذن له الرسول والبسه درعه وعمامته وشد له سيفه ..

كانت الأعين ترقب هذا كله ، فى اشفاق ودهشة ، فعلى بن ابى طالب يتقدم نحو عمرو بن عبد ود ، وهو مترجل ، وعمرو فـوق حصانه ، يختال بقامته الهائلة وبسمعته بين الفرسان ، فى الحرب والقتال ..

وراى فارس الكفار ، هذا الشـاب اليـافع .. الذى يعرفه ويعرف حقيقة سنه .

واى عار ، ان ينازل مثله شابا صغيرا ، فى عمر اولاده ..

واى عار للفارس العملاق ، لو قتل هذا الصغير فى مبارزة .. ليس فى ذلك اية فروسـية ، وليس فى ذلك الا ضـياع سـمعته كفارس .. حين يقال فى بلاد العرب ، أن عمرو بن عبد ود ،قتل صبيا فى مبارزة بالسيف .. والصبى كان فى عمر اولاده !

وحين تقدم على بن ابى طالب ، شاهرا سيفه ، نحو عمرو ، تراجع هذا بفرسه ساخرا مستهزئا ، وقال لعلى : « والله ما احب ان اقتلك ، لأن اباك كان نديمى » .

وجاء الرد من الفتى :

ــ « ولكنى أحب أن أقتلك » ..

وجن جنـون عمرو .. وازدادت حيرته حين سمع الفتى الصغير ، يهزأ منه .

لأنه وان كان فارسا معدودا بين الفرسان ، فانه يركب حصانه، ليواجه عدوه الواقف على قدميه فوق الرمال ..
وليس هذا من شيم الفرسان ...

لينزل عمرو بن عبد ود ، عن فرسه رغما عنه اذن .. فقد راى الأعين تتجه اليه ، لترى ماذا سيصنع امام منطق الفتى على .
وقفز عمرو فى كبرياء عن فرسه ، ثم تقدم شاهرا سيفه نحو الفتى على وقد ملأه الفيظ ، الى حد انه كان يلطم خديه ؛ لان يوما ما قد جاء ، يرى فيه العرب عمرو بن عبدود ، فى موقف مثل هذا الموقف ، امام شاب فى عمر اولاده .

وفوجىء عمرو بفرسه ، الذى ترجل عنه ، يسقط ميتا ، فقد عقره فتى الفتيان بسيفه حتى لا يهرب خصمه ، حين يشتد بينهما القتال .

وقفز عمرو بن عبد ود ، قفزة الحقد والغضب ، نحو فتى الفتيان ..
والتقى السيفان ...

ليس هذا بفارس صغير ، يا عمرو يا ابن عبد ود .. ليس هذا الفتى كما تصورته يا عدو الله .. انه فتى الفتيان وفارس كل زمان ..

ورفع عمرو سيفه ، واهوى به فى عزم وجنون ، على راس على ابن ابى طالب ، لكن الفتى يتحرك بخفة ، فلا تصيبه الضربة ، الا بجرح سطحى فى جبينه ، ثم يقفز كالأسد نحو عمرو ، فيضربه ضربة واحدة .. لم تتكرر .

ويرى الكفار ، سيف على بن ابى طالب ينفذ الى صدر عمرو ، ويقطع لحمه .. ثم يترنح العملاق ، ويسقط تحت اقدام فتى الفتيان ..

وارتفع تكبير المسلمين يهز السهل والجبل ، وكان المشركون قد تمكن منهم الفزع ، فانطلقوا هاربين .. بعد ان راوا اقوى

فرسانهم ، يسقط بضربة واحدة ، من سيف فتى من المسلمين.. فى عمر اولاده !

وهكذا كانت مواقف فتى الفتيان طوال عمره الحافل بالاستشهاد !

الحسم فى الحرب والسلم ومواجهة المواقف فى الشدة بموقف اكثر شدة والراية لا تسقط من يد الفارس .. لأنه تفرغ لها ..

هوايته وطموحه وعزمه وايمانه .. فى ضربة سيف تنصر الاسلام .. وتزيل الجيوش الكافرة من طريق المسيرة المحمدية .

وفى السلم كانت هوايته كلمة الحق . وضرب المثل فى العدل ..

وقمة هذه المواقف .. التى حسمت قضية الحرب فى تاريخ الحروب الاسلامية فى صدر الاسلام .. كان موقف فتى الفتيان فى حرب المسلمين مع يهود خيبر ..

كانت تلك الحرب .. هى بداية الفتح العظيم ..

وماذا فى خيبر ؟ ..

واين خيبر ؟ ..

ولماذا قامت الحرب هناك ؟ ؟

يصفها المستشرقون والمؤرخون .. بانها واحة تمتد بين تلال « الحرة » وصخورها تحيط بها غير التلال والصخور .. قلاع حصينة .. امتلأت بالجيوش والسلاح ..

اما لماذا قامت تلك الحرب .. فان المؤرخين قد اجمعوا على ان الرسول وخاتم الانبياء ، لم يترك أسلوبا انسانيا .. لكى يتعامل به مع يهود المدينة .. الا واتبعه حتى كف عن ذلك فى النهاية ..

بعد ان جرب العهود والمواثيق .. وتامين حياتهم وعدم التعرض لمعيشتهم وعباداتهم .. وكانوا رغم كل هذا يتربصون به وبكل المسلمين ..

ولذلك قصة ..

كان ذلك بعد سلسلة من الحروب مع يهود بنى قينقاع ويهود بنى النضير وهزيمة اليهود فى كل تلك الحروب .. وكان آخرها الحرب مع يهود بنى قريظة .

لقد تأكد رسول الله من غدرهم دائما . .وعرف أنهم لن يكفوا عنــه ..

وبعد تلك الحروب .. احتشد كل اليهــــود فى خيبر ، حيث الثروة التى تعوضهم عن كل ما فقدوه فى حروبهم مع المسلمين .. فالواحة عريضة والخير وفير .

وخيبر تحميها الحصون .. وتلال وصخور ..

والثروة الهائلة تتيح لهم ان يضاعفوا من الحصون ..

ورغم وفرة العيش ويسر الحـــال فى خيبر .. حيث الارض تزرع والمراعى الوفيرة الا أن يهود خيبر ما كادوا يستردون انفاسهم حتى بدأوا يتآمرون على المسلمين

بدأوا يقطعــون الطريق على قوافــل المسلمين التى تتجــه من المدينة الى الشام .

وواجهت المدينة مصــاعب شديدة فى أحــوالها الاقتصادية ، بعد أن تكرر هجــوم اليهــود على القوافل ، ونهب ما تحمله فى ذهابها أو فى ايابها ..

وكان الرسول عليه السلام .. قد شغل وقته بفتح مكة .. واعداد العدة لهذا اليوم العظيم والحاسم فى تاريخ الاسلام ..

وكان عليه السلام .. يفكر من حين لآخر ليغزو أرض خيبر .. وليفــرغ من التحــدى اليهودى للاســلام .. وكيــد اليهود المســلمين .. غير أن مشــاغل الاعداد لفتح مكة جعلتــه يتريث بعض الوقت .

لكن يوم خيبر قد جاء عنــدما عقد الرسول ، عليه السلام ، صلح الحديبية مع قريش ، ثم أصبح الرسول متأهبا للدفاع عن المسلمين أمام غدر اليهود بهم ..

وهكذا بدأت حرب خيبر ...

جيش المسلمين يشق طريقه فى قلب خيبر الآن ويراه سكان خيبر .. فيهربون الى الحصون المنيعة .. ويرتفع صوت الرسول عليه السلام :

ـ الله اكبر .. ضربت خيبر .. انا اذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين ..

وسقطت الحصون ، واليهود لا ينفعهم سلاحهم ولا كثرتهم فينهزمون ويجتاح الرعب أفئدتهم ولم يبق الا اقوى الحصون فى خيبر .. واشدها منعة حصن « القموص »

كانت حصون اليهود فى خيبر تتميز بوفرة السلاح فى مخازنها والمؤن والعتاد وكان على راس كل حصن اشجع الفرسان واقواهم فى الحروب .. غير أن حصن « القموص » فى خيبر كان يتولى قيادة الجيش اليهودى فيه أقوى فرسان اليهود واكثرهم شهرة وهيبة واسمه « مرحب » وكان « مرحب » يرقب زحف المسلمين نحو حصنه المنيع .. وضحكاته تعلو فوق اسوار الحصن فالقلعة تقوم على مرتفعات صخرية ومحاطة بسور منيع .. ولا سبيل الى اقتحامها .. فاذا حاصرها المسلمون ففى الحصن من المؤن ما يكفى اليهود طوال اشهر عديدة !

واقترب جيش المسلمين من أسوار القلعة وعلى رأس الجيش رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان على القوات المؤمنة ان تفتح ثغرة فى جدران الحصن لينطلق منها فرسان محمد عليه السلام يقتلعون الضلال والاثم .. بسيوفهم .. وخيلهم ..

وتوالت الايام والمجاهدون يستبسلون لكى يفتحوا ثغرة فى الجدران وبعد عشرة ايام استطاع فرسان الاسلام فتح الثغرة فى اقوى الحصون اليهودية .

واقتحم الفرسان الحصن .. من خلال الثغرة .. غير ان المفاجأة كانت فى انتظارهم .. فاليهود يسدون الطريق داخل الحصون .. بترسانة اسلحة .. والصخور الملساء المدببة .. تعترض زحف جيش المسلمين ..

وقرر الرسول دراسة الموقع .. دراسة لا تعرض جيش المسلمين لاية مفاجآت . وخلال ذلك بدأ هجوم آخر حمل رايته أبو بكر الصديق ، فقاتل مع فرسانه أمام جدران الحصن قتالا مروعا .. ثم عاد الفرسان .. بعد أن استعصت عليهم القلعة !

وها هو هجوم آخر بقيادة عمر بن الخطاب واندفع عمر بفرسانه نحو الثغرة وابدى عمر من البسالة ما اثار دهشة الجميع .. غير ان الدفاع عن الحصن كان منيعا يجعل من الهجوم عليه سبيلا الى الانتحار !

وكان الرسول عليه السلام .. يرى عودة فرسان المسلمين من امام جدران الحصن بعد الغروب وقد اقبل الليل .. وكان الرسول قد قرر امرا ..

ووقف عليه السلام بين الصحابة ليقول .. والجيش عائد من حول الحصن اليهودى ..

« لأعطين الراية غدا رجلا يحب الله ورسوله يفتح الله عليه .. ليس بفرار » ..

وعرف الصحابة ان الراية ستعطى فى غد .. لانسان سيصبح النصر على يديه مؤكدا .. فمن هو ؟ ؟

وجاء الصباح .. وترقب الجميع اللحظة التى يرون فيها ذلك الفارس الذى يحب الله ورسوله .

وها هو الرسول يخرج من خيمته ليرسل فى طلب الفارس .. والصحابة يترقبون .

انه فتى الفتيان .. وباب المدينة .. على بن ابى طالب ..

كان ارمد العينين فى ذلك اليوم ، ومع ذلك تفل الرسول فى عينيه فزال عنه الرمد ..

وقال له الرسول : « خذ هذه الراية .. فامض بها حتى يفتح الله عليك » .

وحمل على الراية .. راية بيضاء منقوش عليها بحروف سوداء « لا اله الا الله ـ محمد رسول الله » .

وتحرك فرسان المسلمين يتقدمهم فارس الفرسان يحمل الراية ويندفع بعزم الفتوة .. نحو اقوى الحصون فى خيبر ..

كان على بن ابى طالب يرتدى درع الرسول ويشد السيف الذى لا سيف بعده .. ذا الفقار !

وعنـد ما اقترب فتى الفتيـان من الحصن المنيـع ثبت الراية المحمدية تحت جداره ثم بدا القتال ..

كان لا بد لفتى الفتيان .. ان يصعد بفرسانه فوق الصخور ليتجه الى الثغرة وينفذ منها الى الداخل ..

وتصدى اليهود .. لجيش المسلمين الصـاعد نحو القلعـة فى شجاعة لم يشهدوا مثلها . وكان على راس المجمـوعة اليهودية شقيق الفارس « مرحب » واسمه الحارث وفوجىء فارس اليهود .. بعزم المسلمين واصرارهم على الوصول الى جدار القلعة فاندفع نحوهم بفرسانه .. وقد تصور انهم سيعودون من حيث جاءوا كما حدث فى الهجوم السابق ..

لكن فتى الفتيان يتقدم من جيش اليهود وقائدهم .. ويشتبك فى مبارزة بالسيف مع الحارث .. قائد اليهود .. ثم يصرعه بضربة من ذى الفقار .

وهنا شعر فرسان اليهود بالفزع .. فانطلقوا هاربين ودخلوا القلعة وهم يتصايحون بالرعب .

وعلم قائد اليهود « مرحب » بمصرع أخيـه .. وكان عملاقا يرتدى درعا مزدوجا ويحمل حربة ثلاثة اسنة وخوذة تعلوها جوهرة ثمينة كبيرة وكان يزعق طالبا الثأر من على بن ابى طالب .. وقد خرج من القلعة على رأس جيش من فرسان اليهود .

فماذا حدث ؟ ؟

قامت مبارزة تاريخية حاسمة ...

تقدم « مرحب » فارس فرسان اليهود وجبار حصون خيبر .. ليضرب بسيفه فتى الفتيان على بن ابى طالب ..

وكان يضحك وهو يتقدم نحو الامام على .. مستهترا بهذا الفتى الذى تصدى له .. وليس عليه من الدروع ما يحميه من الموت .

غير أن على بن ابى طالب اقتحم الصفوف .. وبدات المبارزة بينه وبين قائد اليهود فى الحال ..

وأمام دهشة الجميع .. جميع اليهود كان سيف الامام على يهوى على خوذة « مرحب » فيحطمها ثم ينفذ الى راس الفارس اليهودى المغرور فينثر عظام رأسه ونخاعه حول المكان .. واسقط فى يد اليهود بعد أن راوا أقوى فرسانهم يسقط بضربة سيف واحدة من فارس الاسلام .. المهاب ! .. وتم فتح خيبر .. واستسلم اليهود بعد هذه المعركة .

ثم قبلوا كل شروط المسلمين .. غير انهم طلبوا أن يتركهم نبى الاسلام يزرعون الأرض .. ولم يعترض نبى الاسلام الانسان .. الذى لا يرفض أن يرحم حتى أقسى اعدائه واغلظهم قلبا وأكثرهم خيانة !

ومضت قصة فتى الفتيان تسطر أعظم الملاحم فى التاريخ بعد ذلك ..

ها هو فتى الفتيان يتولى السلطة فى بلاد المسلمين ..
كانت الدولة الاسلامية قد قامت ..

انتهت امبراطورية فارس وسقطت جيوش الروم .. وجاء عصر عثمان بن عفان رضى الله عنه بما يحمل من نذر الفتنة .. بعد ان اصبحت دولة الاسلام ممتدة شرقا وغربا .

ثم انتهى عهد عثمان بن عفان بمأساة قتله . على ايدى الثوار وبدأ فتى الفتيان - لاول مرة - يحمل على كاهله اخطر مسئولية فى التاريخ .. لقد التف حوله المساكين .. الذين يتطلعون الى العدل ..

وهو الحاكم الذى يؤمن بالعدل والمساواة والحقوق كلها ..

فى مناخ مشحون بالفتنـــة والانقســـام .. كيف اذن يتحقق العدل ؟؟ وماذا سوف يصنع ؟ ؟

هل يمكن ان تطبق تعاليم الاسلام فى ظل الفتنة ؟

معاوية فى الشام يرفع قميص عثمان المخضب بالدم ويصـــنع فتنة لم تترك للمسلمين سوى التمزق وضياع المبادىء وانهيـــار القيم فى زحمة العاصفة .. اى الفتنة !

غير انه رغم الفتنة والحرب التى بدات بين الحق والباطل اى بين معاوية الذى يريدها ملكا يورث لأولاده وبين الامام على بن ابى طالب الذى يريد تطبيق مبدا الشورى وتعاليم خاتم الرسل وما نص عليه القــرآن .. رغم الحرب .. فان الامام على وجــد انه لا مناص من ارساء قواعد ومبادىء دين الاســـلام خلال حربه مع معاوية وطبقة قريش المتربصة بالاسلام .. فما هى نظرية الامام على بن ابى طالب فى الحكم ؟؟

ولنبدا بدراستها من خلال اقواله .. فماذا يقول ؟

الحــكم .. والرعية

« ان شر وزرائك من كان للأشرار قبلك وزيرا .. فلا يكونن لك بطانة فانهم اخوان الاثمة واخــوان الظلمــة .. وعليك بمن لم يعاون ظالما على ظلمه ولا آثما على اثمه ، أولئك أخف عليك مؤونة وأحسن لك معونة واحتى عليك عطفا ..

« فاتخذ اولئك خاصة لخلواتك وحفلاتك ثم ليكن آثرهم عندك اقولهم بمر الحق لك والصق بأهل الورع والصدق ثم روضهم على ان لا يطروك ، فان كثرة الاطراء تحدث الزهو ، وتدنى من العثرة ، ولا يكونن المحسن والمسىء عندك بمنزلة سواء فان فى ذلك تزهيدا لأهل الاحسان فى الاحسان ، وتدريبا لأهل الاساءة على الاساءة . وأكثر مدارسة العلماء ومناقشة الحكماء فى تثبيت ما صلح عليـــه أمر بلادك » .

تلك سطور من اهم وثيقة فى التراث الاسلامى عن الحكم

وصاحب هذه الوثيقة المبجلة هو الامام على بن ابى طالب امير المؤمنين الذى جاء الى الحكم بعد الثورة ضد عثمان بن عفان وبطانته من المنحرفين .

بل من الاقارب والأصهار .. وعلى رأسهم معاوية بن ابى سفيان ومروان بن الحكم الذى كان رسول الله عليه السلام قد طرده من المدينة .. ثم اصبح فى عهد عثمان وزيرا لأمير المؤمنين فقام بغرس بذور الكراهية فى ارض المسلمين بأن جعل الانحراف عن مبادىء الاسلام .. والتسلط والاستعلاء على الرعية وفرض الوصاية على الناس بلا وجه حق أسلوبا للحكم فى عهد عثمان بن عفان الذى كان قد قارب التسعين من عمره .. واصبح شيخا لا يستطيع مواجهة مسئولية الحكم . فترك الامور لأقاربه ومحاسيب الأقارب .. ثم نشأت مراكز القوى .

ان التراث الذى احتفظ لنا بأقوال الامام على بن ابى طالب وبأحداث التاريخ الاسلامى كله .. احتفظ لنا ايضا بالعبرة

ان نظرية الامام على بن أبى طالب فى الحكم كانت مستمدة اصلا من نصوص القرآن والسنة .. فهى ليست نظرية مستحدثة فى عصره بعد أن تولى السلطة ..

وفى تراثنا العظيم نجد ان مراكز القوى قد ظهرت فى عصر عثمان بن عفان لتستمر فى اغراق الامة فى طوفان الفتنة ، ولتحطم كل المبادىء والقيم وتفرض الحكم المطلق على الرعية .. فى تراثنا ويا للعجب ! قصة دامية مرعبة تحكى كيف ان مراكز القوى قد ظهرت فى صدر الاسلام .. فى عهد عثمان بن عفان ثم ظهر ويا للعجب تبعا لذلك هؤلاء الذين يحولون كل المبادىء الى شعارات .. ثم ـ وهذا هو العجب العجاب ـ ظهر الذين يفرضون وصايتهم على الرعية بلا وجه حق ولا يسمحون للشعب بأن تكون له السيادة كما نص القرآن .. لأن أمرهم شورى وليس أمرهم فى قبضة منحرف أو قاتل أو لص كما حدث بعد ظهور مراكز القوى فى عهد عثمان ..

وفى تراثنا تفاصيل كاملة عن شكل الحكم فى ظل مراكز القوى .. التجسس على الرعية .. الوشاية .. كشف العورات .. مطاردة الشرفاء وتحطيمهم .. تشجيع الانحراف .. مكافأة من يسىء الى بلاده ودينه ومبادىء شعبه .. واختيار اشباه الرجال لتولى الوظائف الكبرى .. ولا جديد تحت الشمس .

الحب هو الثورة ..

يقول التراث انه فى غيبة المبادى وتحويل العقيدة الى شعارات وليس الى واقع حياة ، يظهر الفساد والانحراف والانحلال .

ثم الرشوة ثم الخيانة ..

وقد وصف الامام أمير المؤمنين على بن ابى طالب هذا الموقف الصعب للأمة موقف العزلة عن العقيدة والقيم وعن الاخلاق أبلغ وصف .. وبأدق معنى ..

يقول الامام على وهو يصف الزمان الذى ظهرت فيه طبقة الأوصياء فى غيبة المبادىء والقيم :

ـ أيها الناس .. ان الوفاء توأم الصدق .. وقد أصبحنا فى زمان قد اتخذ اكثر أهله الغدر كيسا (أى ذكاء) ونسبهم اهل الجهل الى حسن الحيلة (اشارة الى وصف معاوية ، رغم غدره وخيانته ، بصاحب العقل والحيلة والداهية والسياسى البارع) .

ثم يعود الامام فيقول عن عصر مراكز القوى فى الاسلام .. وعن الأوصياء أعداء الدين والاخلاق والمناخ الذى كان يعيش فى كنفه المسلمون حينذاك :

ـ أيها الناس .. انا قد أصبحنا فى دهر عنود (جائر) وزمن كنود يعد فيه المحسن مسيئا .. ويزداد الظالم عتوا .. ولا ننتفع بما علمنا .. ولا نسأل عما جهلنا ..

ذلك الزمان هو زمان عثمان بن عفان ومعاوية من خلفه ..

هو زمان الفتنة التى زرعها الطامعون فى السلطة بلا وجه حق وكان الحصاد مرعبا . كانت بحار الدم .. انقسم الشعب ، وتمزقت وحدته ..

زحفت الكراهيــة على أرض المسلمين .. وتلك كانت مؤامرة لعب فيها اليهود الذين دخلوا الاسلام نفاقا وتربصا به دورا خطيرا لهدم وتزييف الاسلام أو تحويله الى شعارات تتردد .. وليس الى واقع حياة كما نادى البيرونى .

وفى مواجهة الكراهية والحقد الاسود رفع الامام على شعار الحب .. شعار الثورة .. فكيف كان ذلك ؟

اننا لا نبالغ ولا ندعى حين نطلق على ثورة الامام على بن أبى طالب حركة تصحيح لمسيرة الاسلام فى ظل شبح معاوية المرعب وطبقة الاوصياء فى عهد عثمان بن عفان .

فكيف بدات حركة التصحيح .. وكيف قرر المسلمون المؤمنون التصدى للكراهية بالحب أى بالثورة ضـد الظلم والحكم المطلق والخيانة والنفاق وتزييف الدين ؟

سقوط مراكز القوى

نحن الآن فى خطر .. اى خطر ..

نحن الآن نترقب خطواتنا لحظة بلحظة .. ولن يحمى هـذه الخطوات نحو تحرير الارض والمقدسات وانقاذ التراث الا نظرية الحب .

والحب ليس ضعفا بل هو قوة ، يدفعها العزم والايمان ..

وما هو الايمـان فى رأى صـاحب نظـرية الحب والحكم .. الامام على ؟

ـ الايمان يقوم على أربع دعائم أولها الصبر .. ثم اليقين .. ثم العدل .. ثم الجهاد .

القول الفصل فى ذلك هو نص أحاديث الرسـول الذى قال قبها عن الامام على : « يا على ان فيك مثلا من عيسى » ..

أى أنه سيتحمل ذنوب الرعية .. وسـيوضع على الصـليب فداء للأمة ..

ثم قال عنه رسول الاسلام :

« على مع القرآن .. والقرآن مع على .. لن يفترقا حتى يردا

على الحوض »

وليس ابلغ من تأكيد هذا المعنى الا قول رسول الله عليه السلام لفارس الحب الامام على :

« يا على لا يكرهك مؤمن ولا يحبك منافق » .

اى ان كل مسلم مؤمن سيحب الامام على .. أما الذين دخلوا الاسلام نفاقا وطمعا فى المال والسلطة والجاه فهم سوف يكرهون الامام على . وقد حدث ..

حدث ما تنبأ به الرسول .. قامت الكراهية بعد مقتل عثمان ابن عفان ، وبدا الصراع بين الحب والكراهية ..

بين على ومعاويه .. بين الحق والباطل .

والتف حول الامام على الذين تشتاق اليهم الجنة .

ابو ذر الغفارى .. عمار بن ياسر .. سلمان الفارسى .. وهم الثلاثة الذين قال عنهم الرسول اربعة تشتاق اليهم الجنة .. على .. وابو ذر .. وسلمان .. وعمار .

اما عمار بن ياسر .. فهو بطل الحرية فى عهد عثمان بن عفان .. وهو الذى جاء الى مصر ليحرض الشعب على الثورة ضد مراكز القوى فى عهد عثمان واختار مصر لأن اهل مصر لا يؤمنون بالتفرقة العنصرية . وعمار كانت امه هى شهيدة الاسلام سمية وكانت سوداء .. وكانت أعظم نساء الاسلام فى التاريخ الاسلامى .. لأنها صمدت لقريش وتعذبت جسديا عذابا لا يوصف . حتى بقروا بطنها بالحراب .. عندما شعرت قريش ان سمية لن ترتد عن الاسلام .

وفى مصر التف الشعب حول عمار بن ياسر .. فهم يعرفون مكانة عمار فى الاسلام .

هو حبيب رسول الله .. وهو الذى هز جدران بيت عثمان بالاحتجاج على الظلم .

واستجاب الشعب فى مصر لصيحة عمار المدوية ، ضد مراكز القوى فى عهد عثمان .

وتجمع الثوار فى مصر .. حول الصحابى الفارسى .. ذلك الذى حمل السيف وهو فى التسعين خلف الامام على واستشهد فى معركته مع معاوية .

وفى الجزيرة كان يقود الثورة ابو ذر الغفارى .. الذى طاردته مراكز القوى فى كل ايام عمره وكان ابو ذر هو اول مفكر مسلم . يكشف عن الانحراف فى مواجهة السلطان الجائر فى دمشق معاوية وذلك اعظم جهاد .. كما قال الرسول عليه السلام .

اما سلمان الفارسى فهو يرفض معاش بيت المال .. فى عهد عثمان .. ويردد الاقوال عن الفساد والترف والغدر بالمبادىء والعقيدة ..

وعندما استفحل امر مراكز القوى قامت الثورة .. ومن مصر بدات .. خرج الثوار من مصر الى الجزيرة يسابقون الريح بخيلهم .. وكان موكبا مهيبا شاكى السلاح .

وحاصر الثوار بيت عثمان وكانوا يؤمنون بالحب .. بالسلام . لذلك تقدموا بمطالبهم الى امير المؤمنين .. مكتوبة ، فاذا وافق عليها امر قائدهم مالك الاشتر بفك الحصار من حول دار عثمان .   اما تلك المطالب فهى محددة .

القضاء على مراكز القوى .. تلك التى جعلت الاسلام شعارات تتردد وليس واقع حياة .

واستنجد عثمان بن عفان بالشعب وكان الناس من كل بلاد المسلمين قد تجمعوا فى مكة والمدينة فى موسم الحج .. ومع ذلك فعندما وصلت للناس استغاثة عثمان . لم يتحرك واحد منهم .. لأن كل الشعب المسلم كان يعرف أن مراكز القوى قد افسدت الدين .. وأن عهد عثمان هو عهد الانحراف ..

حينئذ وافق عثمان بن عفان على مطالب الثوار .. وكلها كانت آمال عشاق فما هى تلك المطالب أو تلك الآمال للعشاق فى الاسلام

على الخليفة ان يعدل فى القسمة .. اى فى توزيع الفىء لأن الناس فى عهد عثمان راوا المنحرفين عن الاسلام والاقارب والمنافقين

هم الذين يحتكرون الفيء .

اما المطلب الثانى للثوار فهو ان يستعمل أمير المؤمنين الشرفاء من الناس والمؤمنين من الناس والمجاهدين من الناس .. ليشغلوا وظائف الدولة وليس هؤلاء الاوصـياء المنحرفين المنـافقين الذين أفسدوا فى البلاد .

أما المطلب الثـالث فهو الافراج عن المنفيين من ابطـال الدعوة المحموية . فحكومة عثمان بن عفـان المتجسدة فى الوزير مروان بن الحكم وفى معاوية بن أبى سفيان حاكم دمشق ومستشار عثمان الاول كانت تعتقل أفراد الرعية من المناضلين .. الذين ارتفعت أصواتهم محـذرة من مراكز القوى ومن انحراف رجال الحكم فى عهد عثمان .. وكانت حكومة عثمان تنفى هؤلاء الثوار الى أماكن معزولة عن الناس .. بعيدة جدا عن آذان الرعية .. وعلى راس هؤلاء المعتقلين الذين امر عثمان بن عفان بنفيهم بطل الفكر الاسلامى « ابو ذر الغفارى » الذى مات فى المنفى .

وعندما وافق عثمان مرغما على مطالب الثوار أمر قادة الثوار بفك الحصار من حول دار عثمان ، والعودة الى مصر .

غير أنهم فى الطريق راوا فارسـا ينهب الارض بجواده .. فاعترضوه ووجدوه رسولا من عثمـان بن عفان ومعه رسـالة الى والى مصر « أقتل هؤلاء الثوار فور وصولهم لديك » .

وصدم الثوار لهذا الغدر .. فعادوا الى الجزيرة وحاصروا دار عثمان ثم قتلوه .

نظرية الحب والحكم

وبدأ عصر الحب ..

فما هى نظرية الحب والحكم التى اراد امير المؤمنين على بن أبى طالب أن يطبقها فى أعقاب عهد فاسد وفى مناخ متعفن بالنفاق صنعته مراكز القوى فى عهد عثمان .

النظرية كلها فى هذه الوثيقة .. فى رسالة على بن ابى طالب الى حاكم مصر بعد حركة التصحيح .. واسمه مالك الاشتر .. أحد

قادة حركة التصحيح والذى تزعم الثوار من مصر الى الجزيرة ..
وهو الذى كتب مطالب الثوار .. وحددها .

ويقول الامام على عن ذلك فى رسالته التاريخية :

« لن تقدس امة لا يؤخذ للضعيف فيها حقه غير متتعتع » اى بلا تردد ،

اما بعد ..

« اطلق عن الناس عقدة كل حقد واقطع عنك سبب كل وتر (عداء) وتغاب عن كل ما لا يضح لك ، ولا تعجلن بتصديق ساع (واش) ، فان الساعى غاش وان تشبه بالناصحين ، وليكن ابعد رعيتك منك ، واشنأهم عندك ، اطلبهم لمعايب الناس ، فان فى الناس عيوبا ، الوالى احق من سترها ، فلا تكشفن عما غاب عنك منها . فعليك تطهير ما ظهر لك . والله يحكم على ما غاب عنك فاستر العورة ما استطعت ، يستر الله منك ماتحب ستره من رعيتك » .

وفى نظرية الحب والحكم ، التى تعبر عنها هذه الوثيقة نرى أمير المؤمنين يوجه ارشاداته الى حاكم مصر ، حول قضية خاصة الناس وعامة الناس . ويرى الامام على أن الحاكم يصبح منحرفا اذا استجاب لمطالب الخاصة طلبا لمرضاتهم ، لأن سخط الخاصة لا قيمة له . اما سخط العامة فهو لا يغتفر .. ففيه ميل الرعية الى العدل .. أما الخاصة فمطالبهم كثيرة واطماعهم كبيرة وهمتهم قعساء .

« وليكن أحب الأمور اليك اوسطها فى الحق ، واعمها فى العدل واجمعها لرضا الرعية . فان سخط العامة يجحف برضا الخاصة .. وان سخط الخاصة يغتفر مع رضا العامة ، وليس احد من الرعية ، اثقل على الوالى مؤونة فى الرضا ، واقل معونة له فى البلاء ، واكره للانصاف ، واسأل بالالحاف ، واقل شكرا عند الاعطاء ، وابطأ عذرا عند المنع ، واضعف صبرا لملمات الدهر ، من أهل الخاصة .

وانما عماد الدين وجماع المسلمين والعدة للأعداء ، العامة من الأمة ، فليكن استماعك لهم وميلك معهم » .

وأعجب ما فى وثيقة الحب والحكم هو اشارة الامام على الى أن الولاة فى عهد مراكز القوى واعوانهم يشغلون وقتهم بسرقة مال الشعب ونهب خيرات البلاد . لأنهم كما قال الامام ، يخافون لضعف نفوسهم ، من العزل فيسعون الى جمع الثروات من المال الحرام .

والوثيقة حافلة بتفاصيل نظرية الحب والحكم ، ومتكاملة وحاسمة .. وفى نهايتها نصيحة لكل حاكم مسلم ، يؤمن بالحب .

« واجعل لذوى الحاجات منك قسما تفرغ لهم فيه شخصك ، وتجلس لهم مجلسا عاما ، فتتواضع فيه لله الذى خلقك ، وتقعد عنهم جندك واعوانك من حراسك وشرطك حتى يكلمك متكلمهم بلا خوف فانى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : لن تقدس امة لا يؤخذ للضعيف فيها حقه من القوى غير متتعتع (أى بلا تردد) واما بعد .. فلا تطولن احتجابك عن رعيتك ، فان احتجاب الولاة عن الرعية ، شعبة من الضيق ، وقلة علم بالأمور ، والاحتجاب منهم يقطع عنهم علم ما احتجبوا دونه ، فيصغر عندهم الكبير ويعظم الصغير ، ويقبح الحسن ، ويحسن القبيح ، ويشاب الحق بالباطل .

والسلام على رسول الله ، صلى الله عليه وآله الطيبين الطاهرين والسلام » .

دين أم دولة ؟؟

انما بدء وقوع الفتن ، اهواء تتبع ، واحكام تبتدع يخالف فيها كتاب الله ، ويتولى عليها رجال على غير دين الله ..

« ولا بد للناس من أمير ، بر او فاجر ، يعمل فى امرته المؤمن ويستمتع فيها الكافر ، ويبلغ الله فيها الاجل ، ويجمع به الفىء ويقاتل به العدو ، وتؤمن به السبل ، ويؤخذ به للضعيف من القوى ، حتى يستريح بر ، ويستراح من فاجر .

اما الأمرة البرة ، فيعمل فيها التقى ، واما الأمرة الفاجرة

فيتمتع فيها الشقى ، الى أن تنقطع مدته وتدركه منيته » .

ذلك كان تفسير الامام على بن ابى طالب للاسلام ، وموقف العقيدة الاسلامية من انشاء الدولة ، واقامة الحضارة . وكان الامام على يسميها « العمران » .

وكان السؤال الذى طرحه الخوارج فى عهد الامام على والثورة ضد معاوية هو :

ـ هل الاسلام دين أم دولة ؟؟

وتلك كانت فتنة ، مزقت شمل الشعب ..

قال الخوارج : انه لا حكم الا الله . وهو قول حق يراد به باطل ، كما قال الامام على . فالاسلام لم يقم ليترك المسلمين فى فراغ يعيشون كما يحلو لهم . بل أن الاسلام كما فسره الامام على ابلغ تفسير هو :

« الاسلام هو التسليم ، والتسليم هو اليقين ، واليقين هو التصديق ، والتصديق هو الاقرار ، والاقرار هو الاداء .. والاداء هو العمل » .

فكيف يقوم العمل ، معنويا وماديا الا اذا كان هناك مجتمع .. ودولة .

والذين قاموا بدراسة الفكر الاسلامى أو اخذوا عنه افكاره وتعاليمه ، من الاوروبيين والمفكرين الأجانب ، يقولون : ان الاسلام دين ودولة .

يقول جان جاك روسو فى كتابه « العقد الاجتماعى » :

« لقد استطاع نبى الاسلام ، اقامة نظام سياسى عادل ، بل هو نظام بارع لحكم دولة » .

وجاء بعد جان جاك روسو كثيرون من المفكرين الاوربيين ، وقالوا نفس الكلام . مثل « سبنسر » الذى قال :

« الاسلام مدنية كاملة .. دين ودولة » .

وهو قانون اخلاقى ، كما وصفه آخرون .. والاسلام محتواه هو العمل وليس المعجزة ..

والعمل يقيم بناء الدولة .. اما المعجزات فتلك مواقف فردية .

يقول المفكر الانجليزى ، بوسورث سميت ، فى كتابه « محمد والدين المحمدى » والذى ترجم الى العربية .

« ان اعجب الامور فى حياة محمد انه لم يدع قط القدرة على صنع المعجزات ، وكل شيء قال انه سيفعله رآه اتباعه وهو يفعله .. ولم ينسب اليه احد معجزة من المعجزات ، بل ان محمدا نفسه حرص دائما على أن ينكر قدرته على اتيان المعجزات » .

ويستطرد الكاتب الانجليزى فى كتابه يعلق على موقف الاسلام ونبى الاسلام :

« أى دليل اذن أقوى من ذلك على الاخلاص . يمكن ان يسوقه انسان ، واذا كان لاى فرد أن يدعى الحق ، فى تلقى الوحى من السماء فهو محمد » .

وجاء بعد الكاتب الانجليزى كتاب المان ومن كل جنسيات اوربا وقالوا عن الاسلام نفس الشيء .. فهو دين ودولة .

حتى كتاب أمريكا ومن بينهم واشنطن ارفنج ، الذى وصف اخلاق رسول الاسلام بالبسالة .. وليس بالمعجزة .

والدولة الاسلامية بدأت كدولة فى عهد عمر بن الخطاب .. رضى الله عنه .. كذلك بدأت الفتنة فى نفس الوقت .

فجرها أعداء الدولة الجديدة من سادة قريش ، الذين دخلوا الاسلام نفاقا أو طمعا فى السلطة أو خوفا من العزلة والضياع .

وعندما راوا أن الحكم فى دولة الاسلام سيكون باجماع المسلمين وليس بسلطة الذهب والمكانة الطبقية ، بدأوا يحتشدون للتآمر على امير المؤمنين عمر بن الخطاب وعلى الدولة الجديدة .

ان الاسلام يطرح بعيدا ، قضية حكم الطبقة الواحدة . لقد أسقط الاسلام هذا النظام القائم على تسلط طبقة ووصايتها على مجموع الرعية ، وكانت قريش هى الطبقة التى احتشدت بكل قواها

منذ عهد عمر بن الخطاب لكى تتآمر على نظام الدولة الاسلامية كما جاء به القرآن والسنة • وتسعى لان تجعل من الاسلام اداة للتسلط وحكم الاوصياء •• أى الطبقة الواحدة •

ولن يتم ذلك الا اذا تحول الاسلام الى شعارات تتردد وليس الى واقع حياة • وكبرت الفتنة حتى جاء معاوية وحقق لقريش مؤامرتها •• لكن بعد طوفان من الدم •

وهنا تشرق العبرة من تراثنا •• والمؤمن من اتعظ وليس من يتجاهل العبر •

والعبرة فى التراث ، هى الاخطار التى تهدد حكم الرعية فى ظل حاكم عادل مثل عمر ، يؤمن بالمساواه والحقوق الشرعية لكل الرعية •• وبين الرعية طبقة واحدة منعزلة بفكرها ، واخلاقياتها عن جوهر الاسلام ، بل ومصالحها كطبقة متسلطة •• تزعم لنفسها حقوقا فوق حقوق كل البشر ، هذا كله يجعل مثل هذه الفئة أو الطبقة الواحدة ، بؤرة لتفريخ المؤامرات واحداث الفتن ، وتبديد طاقات المؤمنين • ومثل هذه الفئة المعادية لروح الاسلام ولمبادىء الاسلام ، لا تتورع عن اقامة المذابح لاسقاط حكم الرعية •• اى الاسلام • •ولو ادى ذلك لهلاك الشعب •• !

وفى مواجهة هذا الموقف •• نرى فى التراث •• ان عمر بن الخطاب قد اكتشف المؤامرة الصامتة ، وكان موقفه منها قبل ان يرتفع صوتها فتقع الفتنة ، هو موقف الحزم والحسم والردع •• بل والانتقام • ولكم فى القصاص حياة ••

ها هو عمر يرفع صوته أمام الرعية لينشر فكرة دولة الاسلام التى قامت •

« الا انى والله ما ارسلت عمالى اليكم ، لا ليضربوا ابشاركم ، ولا ليأخذوا أموالكم ، ولكن أرسلتهم اليكم ليعلموكم دينكم وسنتكم ، فمن فعل به سوى ذلك ، فليرفعه الى • فوالذى نفسى بيده لأقتص منه » •

وهنا سأل عمرو بن العاص وقد قفز واقفا فى ذهول :

« ياأمير المؤمنين .. افرأيت ان كان رجل من المسلمين على رعيته ، فأدب بعض رعيته .. انك لمقتص منه ؟ » .

كانت مسألة القصاص تخيف افراد الطبقة .. ورد عليه عمر :

« اى والذى نفس عمر بيده ، أقتص منه .. وقد رايت رسول الله يقتص من نفسه » . والتفت عمر الى عماله وقال :

« الا .. لا تضربوا المسلمين فتذلوهم .. ولا تمنعوهم حقوقهم فتكفروهم .. ولا تنزلوهم الغياض فتضيعوهم » .

وبدأت قريش تتحرك .. لاحداث الفتنة ..

تحديد اقامة قريش

والفتنة فى الدولة الاسلامية : كانت دائما من صنع افراد الطبقة الواحدة .. من الذين يريدون فرض وصايتهم بالقوة على الرعية .. رغم انهم اعداء للاسلام .. وقد وصف عمر هذا التحرك نحو الفتنة من طبقة قريش فقال :

« الا ان قريشا يريدون ان يتخذوا مال الله معونات دون عبادة (اى بلا عمل) الا فأما وابن الخطاب حى فلا .. » .

وكان عمر بن الخطاب يرى ان عامة الناس هم مادة الاسلام .. لكن قريش قالت انها هى أساس الاسلام .. كطبقة .

غير أن عمر بن الخطاب كما قلنا .. كان اعنف الرجال فى الحق .. كان حاسما ولم يتردد فى التصدى للمؤامرة بموقف عنيف .. ولا مفر من ذلك فى مواجهة الفتن .. فماذا فعل عمر لاخماد الفتنة .. وحماية الرعية من الانقسام ؟

لم يجد عمر بن الخطاب مفرا من عزل الفئة المنحرفة تماما من الرعية .. بعيدا عن تجمع المسلمين ..

اصدر قرارا او امرا ، بتحديد اقامة طبقة قريش فى المدينة ، وحظر على اى فرد منهم التجول فى بلاد المسلمين .. حتى لايقوموا باحداث بلبلة بين الرعية .. وهكذا لم ينقذ الدولة الاسلامية من وقوع الفتنة فى عهد عمر بن الخطاب الا عزل المنحرفين عن مبادىء الاسلام واعداء الاسلام عن اى موقع فى الدولة بعيدا عن الرعية .

وجاء زعماء قريش وقد انتابهم الرعب •• جاءوا ووقفوا على باب عمر بن الخطاب .. يطلبون الاذن بالدخول ..

فماذا كان موقف عمر ؟

رفض الاذن لهم .. لانه رأى انه لا بد من اسقاط هيبة مراكز القوى في الدولة امام الرعية .. ورفضه مقابلة زعماء قريش معناه انهم بلا سلطة •• وليس لهم شأن في الدولة الجديدة •

كان من بينهم ابو سفيان ، وسهيل بن عمرو •• اثنان من اخطر الانتهازيين في الاسلام •• ولم تعد لأبى سفيان فى بلاد العرب هيبه ولا كلمه •• فى عهد عمر •

كانت فلسفة عمر التى حطمت الفتنه وقضت على مراكز القوى في عهده تقوم على اساس الردع دائما •• الردع السريع ••

وقريش ظلت أكبر مركز قوة فى الاسلام •

ونرى عمر بن الخطاب يحرص ، فى معركته مع مراكز القوى فى الاسلام على ابعاد الأفراد الذين يمثلون مراكز القوى عن وظائف الدولة •• حتى لا يتجمع من حولهم الانتهازيون والمنحرفون واللصوص •• حتى لا تتجمع الفتنة !

بل نراه يأمر بمحاكمة شخصيات هامة فى تاريخ الاسلام • عندما سمع انهم قد انحرفوا •• ولو اقل انحراف •

نراه يأمر بمحاكمة خالد بن الوليد •• عندما علم انه يمنح الشعراء جوائز مالية مثلما كان الحال فى الجاهلية •

لم يكن عمر بن الخطاب يقف وحده فى مواجهة مراكز القوى ، أى اعداء الرعية ، بل كان من حوله شخصيات اسلامية مهابة •

على راسهم الامام على بن ابى طالب •

هو مستشار عمر ، ويقول سعيد بن المسيب : ان عمر كان يتعوذ من معضلة ليس لها أبو الحسن •• أى على •

وقد تزوج عمر من ام كلثوم ابنة على بن ابى طالب ، حبا منه فى الامام على • وروح الاسلام فى الدولة الاسلامية كانت سيفا مصلتا على رقاب مراكز القوى واتباعهم من الانتهازيين والمرتشين •

وكانت المؤامره على الدولة تتجمع فى بيت أبى سفيان .. بيت أمية .. ومن العجيب ان يرى مراكز القوى فى صدر الاسلام ، تتبع نفس الاسلوب الذى مضت فيه مراكز القوى فى القرن العشرين ..

كان أبو سفيان رأس الطبقة المنافقة لا يتورع عن نصرة الاجانب على المسلمين ليحقق أهدافه ..

وعندما استشهد عمر بن الخطاب .. انطلق ابو سـفيان يسابق الريح ليلتقى بسادة قريش .. وكان عثمان بن عفـان قـد أصبح أميرا للمؤمنين واقبل سـادة قريش نحو زعيمهم فى فضول يسألون : ماذا حدث ؟

وصرخ أبو سفيان .. يابنى أمية .. تلقفوها تلقف الكرة ؟ فوالذى يحلف به أبو سفيان ، مازلت ارجوها لكم .. ولتصيرن الى صبيانكم وراثة .. هكذا وقع الانقلاب فى دولة الاسلام .

لقد وقف يومها ابو سفيان أمام قبر حمزة .. عم رسول الله الذى استشهد فى احد وركل قبره بقدمه وهو يصرخ بالفرح :

« قم يا حمزة ان الأمر الذى قاتلنا عليه .. صار الينا وراثة »

كان الاسلام يمر باعظم تجاربه . تلك التجربة التى أراد الله سبحانه أن تكون للمسلمين عبرة .. على مر العصور .

وتلك العبرة تقول انه لا مهـادنة مع مراكز القـوى ، ولا تعاطف مع انتهازى ، لأن ذلك سيؤدى الى الفتنة .. وطوفان الدم .

وسيؤدى كما قال الامام على الى تولى رجال على غير دين الله السلطة فى بلاد المسلمين !